نصوص مترجمة

IGNAZ GOLDZIHER

«MUSLIM STUDIES»

(MUHAMMEDANISCHE STUDIEN)

Translated From German by
C.R. Barber and S .M . Stern

Volume 2

ALDINE AND ATHERTON
CHICAGO AND NEW YORK

أجنتس جولد زيهر

دراسات محمدية

الجزء الثاني

ترجمه عن الانكليزية
الصديق بشير نصر

الإهداء

إلى عزيزي
أوجست مِلّلر
إعترافاً بالصداقة الحقّة

تنويهات

ـ الهوامش الموضوعة بين حاصرتين [ ] إضافات من صنع الدكتور سترن أحد مترجمي الكتاب من الألمانية إلى الإنجليزية . وباقي الهوامش لجولد تسيهر نفسه .

ـ التعليقات المسبوقة بنجمة * (. . .) هكذا ، هي من عند المترجم إلى العربية .

ـ سلك جولد تسيهر في ذكر مصادره ـ التي لم يشر إليها في التمهيد ـ مسلكاً عجيباً لا يمت إلى المنهج العلمي بصلة . فهو تارة يشير إلى المؤلف دون ذكر اسم الكتاب كأن يقول : « ابن قتيبة ص(١٠٠) » . فلا تكاد تعرف أيَّ كتاب لابن قتيبة يعني ، ثم بمشقة تكتشف أنه يريد كتابه (المعارف) مثلاً .

وتارة أخرى يشير إلى الكتاب دون ذكر اسم مؤلفه ، كأن يقول : « التوضيح ص٣٠٠ » . فلا تدري لمن التوضيح هذا وفي أي موضوع هو . وبعد لأيٍ تكتشف أنه حاشية في أصول الفقه لصدر الشريعة ، الأمر الذي أرهقني في تخريج نصوصه .

وهو فضلاً عن ذلك يرجع إلى طبعات قديمة نافدة اضطرتني إلى رد تلك الإحالات إلى مواطنها في طبقات أخرى متداولة ، إلاّ إذا أعيتني الحيلة فأبقى على ما ذكر .

ثم أنه قد يمضي إلى أبعد من ذلك فيكتفي بكنية المؤلف ورقم الصفحة ، كأن يقول : « أنظر ـ أبو المحاسن ص ٢١١ » . فلا تعرف من أبو المحاسن هذا ، أهو التاوقجي مثلاً أم ابن تغرى بردى ؟ ولا ما هو كتاب أبي المحاسن هذا ؟

ـ المصادر غير العربية أبقيت على الإحالات إليها كما هي .

ـ نقلت الهوامش إلى آخر كلّ فصل بما يتلائم مع طبيعة المجلة المنشور فيها الكتاب .

ـ التصلية على النبي زيادة من عندي .

تمهيد

ينقلنا الجزء الثاني من كتاب (دراسات محمدية) - وإلى حدّ ما - إلى غمرة العوامل الشعبية والدينية ذات الأهمية البالغة في التطور التاريخي للإسلام .

والجزء الأكبر من الدراسات التالية يظهر في هذا الجزء لأول مرة ، باستثناء بضع دراسات سبق نشرها ، مثل : « تعظيم الأولياء في الإسلام Veneration of Saints in Islam » ، والتي كانت في الأصل مقالة كتبتها بالفرنسية تحت عنوان :

(Le culte des Saints chez les Musulmans)

وقد نشرت أولاً في مجلة تاريخ الأديان : Revue de l'histoire des religions, II, PP. 257-351. وقد ضُمَّت إلى هذا الكتاب في شكل منقّح كلياً .

وبصرف النظر عن كثير من الحذف ، فإن بعض المواضع قد زوّدت بمواد أكثر شمولاً ، بينما كانت المواضع الأخرى جديدة إلى حدّ كبير .

والذيل رقم (2) هو بعينه المقالة التي نشرتها في المجلة الآنفة الذكر , XVIII PP , . 180 - 199 تحت عنوان : (Influences chrétiennes dans la littérature religiruse de L'islam) وقد شرع في طبع هذا الجزء مع صدور القسم الثاني من كتاب فلهاوزن Skizzen und Vorarbeiten الأمر الذي لم ييّسر لي الأنتفاع بنتائج ذلك الكتاب لاسيما في الفصول الأولى من دراسة « الحديث » . وفي هذا المقام أود أن أشير إلى أن الصفحة (70) من كتاب فلهاوزن ذات صلة بالصفحتين (26)، (27)من الجزء الثاني من فهرست برلين الشامل الذي وضعه الفرت Ahlwardt الذي يمكن أن يعدَّ بحقٍ أكبر ذخيرة للتاريخ الأدبي للحديث النبوي ، وهذا لم يتوفر لي إلاّ قبل تسليم المخطوط بوقتٍ قليل ، أيّ في اللحظة الأخيرة .

أما عن المخطوطات التي رجعت إليها عند كتابة هذا الجزء ، فإليك بياناً مفصلاً عنها :

- كتاب السير الكبير ، للشيباني . مع شرح للسرخسي . (مخطوط ليدن) فارنر رقم 373 ، ولكن لسوء الحظ لا يمكن التعرف على أصل الكتاب من الشرح الموضوع عليه في المخطوطة المذكورة ، والحال نفسه مع مخطوطة فيينا[1] .

---

(1) [كتاب السير الكبير مع شرح السرخسي . نشر في حيدر أباد سنة 1335 - 1336 هـ] .

ـ كتاب الكفاية في معرفة علوم الرواية للخطيب البغدادي[2] . (مخطوط ليدن) فارنر رقم 353 .

ـ مختلف الحديث لابن قتيبة . مخطوط ضمن مجموعة فارنر السابقة رقم 882 [3] .

ـ أدب القاضي لأبي بكر ابن الخصاف . (مخطوط ليدن) فاريز رقم 550[4] .

ـ كتاب القصّاص والمذكّرين لابن الجوزي . مخطوط . المجموعة السابقة رقم 998[5] .

ـ أسانيد المحدثين[6] ، (مخطوط ليدن)، أمين رقم 39 (لاندبرج ، فهرست ، ص 13) .

والمخطوطات التالية موجودة ضمن مجموعة مخطوطات الرفاعية بمكتبة جامعة لايبزج :

ـ تقريب النووي (وهو تقريب لمقدمة ابن الصلاح) والمسائل المأثورة (وكلتاهما ضمن مجلد واحد ، D . C . رقم 189[7] .

ـ رحلة عبد الغني النابلسي ، المسماة بالحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز (رقم 362[8]) .

ـ الكواكب الدرّية للمناوي . رقم (141[9]) .

---

(2) [نشر بحيدر اباد سنة 1357 هـ] .

* (ونشر مؤخراً بتحقيق الدكتور أحمد عمر هاشم ، بيروت ، دار الكتاب العربي 1984 م) .

(3) [نشر في مصر سنة 1326هـ] .

* (وطبع سنة 1966 بالقاهرة وقام على تصحيحه وضبطه محمد زهري النجار) .

(4) [انظر ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (259/3) . تحقيق عبد الحليم النجار ، المطبعة العربية] .

(5) * (نشر سنة 1971 بتحقيق د. مارلين سوارتز . المكتبة الشرقية ، بيروت) .

(6) * (يبدو أنّ مؤلفه مجهول . ولم يعزه جولد تسيهر لأحد) .

(7) [نشر بالقاهرة سنة 1307 هـ . وترجمه إلى الفرنسية م . مارسيه ، ونشره بالمجلة الاسيوية JA سلسلة (9) ، المجلد (16) . ص (315 - 346 - 478 - 531) لسنة 1900 ، والمجلد (17) ص (- 101 149 ، 193 - 232 ، 232 - 524 - 539) لسنة 1901 ، والمجلد (18) ص (61 - 146) لسنة 1901 . وكتاب المسائل المأثورة نشر بالقاهرة سنة 1352 هـ] .

(8) [انظر ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (457/2) بالألمانية ، وملحقه (474/2) . والكتاب نشر بالقاهرة سنة 1324 هـ] .

(9) [انظر ، بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (394/2) بالألمانية ، وملحقه (417/2)] .

- طبقات الأبرار للبقاعي . أرقام (234 - 237) .
- ابتغاء القربة باللباس والصحبة ، لأبي الفتح العوفي . رقم (185) .

أمّا المخطوطات التي رجعت إليها بشكل لا يكاد يذكر ، فقد اكتفيت بذكرها في هوامش الكتاب . وأمّا كتب الحديث التي نقلت عنها ، فإليك بياناً بمكان طبعها وتاريخه :

- البخاري مع شرح القسطلاني ، بولاق ، 1285 هـ. في عشرة أجزاء .
- مسلم مع شرح النووي ، القاهرة ، 1284 هـ . في أربعة أجزاء .
- أبو داوود ، القاهرة ، 1280 هـ. في جزئين .
- النسائي - طبعة حجرية ، 1282 هـ. في جزئين .
- الترمذي ، بولاق ، 1292 هـ. في جزئين .
- ابن ماجة ، طبعة حجرية ، دلهي ، 1282 هـ.
- الموطأ مع شرح الزرقاني ، القاهرة ، 1279 - 1280 هـ. في أربعة أجزاء .
- تنقيح الموطأ لمحمد بن الحسن الشيباني مع شرح عبد الحيّ ، طبعة حجرية ، لكهنوء ، 1297 هـ.
- سنن الدارمي ، طبعة حجرية ، كاونبور ، 1293 هـ.
- مصابيح السنة للبغوي ، القاهرة ، 1294 هـ. في جزئين .

وأما الكتب التي انقل عنها من حين لآخر ، فهي :

- حياة الحيوان للدميري ، الطبعة التي نشرت عقب طبعة بولاق ، 1284 هـ.
- فوات الوفيات للكتبي ، الطبعة التي نشرت عقب طبعة بولاق ، 1299هـ.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي ، الطبعة التي نشرت عقب طبعة القاهرة ، 1305 هـ، وبهامشه كتاب تاريخ الأولى للحسن العباسي .

كما أود أن أغتنم هذه الفرصة لكي أتوجه بالشكر للأصدقاء والزملاء وإدارات المكتبات لتمكينهم إياي من النظر في المصادر الأدبية ، ومظان بعض الكتب التي عزّ عليَّ العثور عليها . وإنني لمدين بالشكر للسيد فولرس Vollers مدير مكتبة « ولي العهد » بالقاهرة الذي كان يميل لدعم الكتاب حيث أمدني ببضعة نصوص ومقتطفات من مخطوطات المكتبة التي يديرها .

اجنتس جولد زيهر **يوليه 1890 م .**

عن تطور الحديث النبويّ

On The Development of The Hadith

الحديث والسنّة

(1)

« الحديث لفظه تعني « الحكاية » أو « الخبر » ، وليس هو الخبر الذي بين معتنقي العقيدة الواحدة فحسب ، بل يراد به كذلك المعلومات أو المعارف التاريخية سواء أكانت دنيوية أم دينية ، وسواء أكانت من الماضي البعيد أو من الوقائع أو الأحداث المتأخرة[10] .

يقول أبو هريرة : « ألا أعللكم بحدثٍ من حديثكم معشر الأنصار »[11] ، ثم يخبرهم قصةً من سلسلة أحداث فتح مكة ، وكان يرمى من وراء ذلك أن يقوي إحساسهم بالتآلف ، وذلك لأن العرب الوثنيين أو المشركين العرب اعتادوا أن يتغنوا ويفتخروا بقصص أيامهم .

ومن سياق الأساطير والخرافات جُعلت لفظة (حديث) لموضوعات القصص[12]، ومن ثمَّ كان قولهم : « يصبح حديثاً » بمعنى يصير مثلاً أو مشعلاً تحتذيه الأجيال القادمة[13] ، ومنذ فترة مبكرة ظل الاستعمال اللغوي لهذه الكلمة

---

(10) وتعني الأحاديث في الاستعمال القديم ايضاً : « قصص من ماضي القبائل » . ومن ذلك قولهم : «ومن الحديث مهالك وخلود» (أبيّ بن هريم . حاشية على الحادرة . نشر انجلمان ص12-13) وفي معلقة زهير : وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم ولمعرفة المزيد عن كلمة (مرجّم) ، قارن بما جاء في تاريخ الطبري (4, 2179/3) مثل : (رجماً بالظنون) ، وقارن بـ : حكايات من الأحداث اليومية لـ . Imrq (1/40 - 2) ، (1/50) .

(11) البلاذري : فتوح البلدان ص 52 . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1977 م .

(12) Fragmenta historicorumarabicorum ، [ج 1 ، ليدن 1868م] ، نشره دي جويه ص 102-112 : « من أحاديث العرب ومن أشعارها » . انظر ، ياقوت : معجم الأدباء (898/4-899) : « ومن أحاديث أهل اليمن » .

(13) لمعرفة المزيد عن قولهم : « صار حديثاً » انظر الأغاني (47/14) أو « أحدوثة » المصدر نفسه . (150/21) . والمعنيان مجموعان في بيت لأبي كلدة . ذكره أبو فرج في الأغاني (120/10 - 122) :

ولا تصبحوا أحدوثة مثل قائل   به يضرب المثل من يتمثل

مقصوراً في الدوائر الدينية على نوعٍ معينٍ من الخبر والحكاية دون أن تنقل من سياقها العام[14] .

ويقول عبدالله بن مسعود : « إنّ أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى[15] هدى محمد »[16] . ويبدو أن هذه العبارة التي تلقاها جمهور المؤمنين بنوعٍ من الرضا وقاموا بنشرها على مدى عريض قد نسبت لمحمد نفسه لقوله حاضّاً على التكتّل : « إنّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زيّنه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه »[17] .

ولّما كان كتاب الله هو « الأحسن حديثاً » ، وخوفاً من التناقض مع المفهوم العام لكلمة (حديث) ، ولأن القرآن أعلى المصادر الشرعية قصرت لفظة (حديث) على أقوال الرسول ، إمّا بمبادرته الخاصة بالكلام ، أو إجابته على سؤال .

يقول أبو هريرة : «قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم

---

(14) القصص المأخوذة من تاريخ دنيويّ (أيّ لا صلة له بالموضوعات الدينية) تسمّى عادة أخبارا كقول ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) : « رواة الحديث والأخبار » ص 4 ، بتحقيق ريتر شوزن . [وفي طبعة دي جويه ص 3 : من المحتمل أن لفظة « اخبار » هنا هي حشو كلام ، وأن المقصود هم رواة الحديث ؟

* (وقول ابن قتيبة كما في مقدمة (الشعر والشعراء) 8/1 ، الطبعة الرابعة، دار الثقافة بيروت 1980 : « ولعلك تظن رحمك الله أنه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا الآّ يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً إلاّ ذكره ودَلّك عليه ، وتقدر أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف . . . ») .

(15) هَدْي ، وهُدَى . لفظتان مرادفتان للسنة ، وأحياناً تحلاّن محلّها . انظر سنن أبي داود (كتاب الصوم ، باب قدر مسيرة ما يفطر فيه) .

(16) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله) .

* (لاحظ إيهامه القارىء بقوله : يقول عبد الله بن مسعود ، في حين أن القائل هو رسول الله ﷺ ، لأن قول عبد الله بن مسعود وإن كان موقوفاً إلاّ أنه في حكم الرفع ثم إن اعراضه عن ايراد المرفوع والاقتصار على الموقوف ضرب من التدليس . انظر تفصيل الموضوع في تعليقاتنا اللاحقة) .

(17) ابن هشام : السيرة النبوية (146/2) ، ط (3) ، تحقيق السقا والأبياري وشلبي ، 1971 م . كذا كان في أول الأمر ، ثم تبين بعد أيام من ذلك أن تسمية القرآن بالحديث أمر غير مرغوب فيه فاستبدلت عبارة « أحسن الحديث » بـ « أحسن الكلام » ، انظر سنن ابن ماجة : (باب اجتناب البدع والجدل) .

القيامة ؟ فقال : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلاّ الله خالصاً من قبل نفسه»[18] .

وردد الصحابة الأتقياء أقوال النبي الغامضة في وقار واحترام ، وحاولوا حفظ كلِّ شيء قاله النبي لأجل تهذيب الجماعة الإسلامية وإرشادها ، وكلّ ما أمر به ـ على الصعيدين العام والخاص معاً ـ فيما يتصل بممارسة الواجبات الدينية ، أي نظام الحياة بشكل عام والسلوك الأجتماعي ، سواء في الماضي أو المستقبل .

وعندما قادتهم الفتوحات السريعة المتتالية الى بلدان بعيدة نقلوا تلك الأحاديث النبوية إلى أولئك الذين لم يسمعوها بآذانهم . وبعد موت النبي أضافوا كثيراً من الأقوال النافعة التي ظنّوا أنها مع رأيه ، وأنّها في نظرهم ستنسب إليه شرعاً .

وتلك الأحاديث تعاملت مع الممارسات الدينية والقانونية (الشرعية) التي طوّرت تحت إشراف النبي ، وعدت قاعدةً لكلّ العالم الأسلامي .

والصحابة هم الذين كوّنوا المادة الأولية للأحاديث التي تزايدت بسرعة خلال الأجيال اللاحقة بسبب العوامل التي ستوضح في الأبواب التالية .

وفي غيبة الدليل الأصيل يكون من ضروب التهور اختبار أيٍّ من أجزاء الحديث هو المادة الأصلية القديمة ، أو حتى أيٍّ منها ينسب إلى الأجيال التي جاءت بعد موت النبي .

والمعرفة الشخصية الدقيقة بهذه الكمية المهولة من الأحاديث والتي ضمّت إلى بعضها في جوامع صنفت بعناية تغري بالحذر والشك لا بالثقة والتفاؤ ل .

ونحن في هذا المقام لا يمكننا الوثوق في هذه الأحاديث بالقدر نفسه الذي فعله دوزي بالنسبة لجزء كبير منها[19] . ولكن ـ إلى حد بعيد ـ يمكن أن نَعُدَّ الجزء الأكبر

= * (نصّ ابن ماجة الذي أحال إليه هو : عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : إنّما هما إثنتان : الكلام والهدى فأحسن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدى هدى محمد . . .).

(18) البخاري (كتاب الرقائق ، باب صفة الجنة والنار) .

(19) يقول دوزي :

= «Je m'etonne toujours, non pas qu'il y ait des passages faux dans la tradition (Car

من تلك الأحاديث على أنه نتيجة لتطور الاسلام الديني والتاريخي والاجتماعي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين .

والحديث لا ينفع وثيقة لتاريخ الاسلام في مراحل نشأته الأولى ، ولكنه يمكن أن يُعَدَّ إلى حدٍّ ما إنعكاساً للنزعات التي ظهرت في الجماعة أثناء المراحل الناضجة من تطوّره .

وهو يحوي ـ أيّ الحديث ـ دليلاً غير ذي قيمة لتطور الاسلام في سنيه الأولى التي كان يكوّن فيها نفسه في وحدة كاملة منظمة من القوة المؤثرة الفعالة .

وهنا تكمن القيمة الحقيقية لدراسة الحديث وتقديرها ، وإنها ذات أهمية بالغة لفهم الإسلام وفي أيّ من أطواره البارزة صحبته مراحل متعاقبة في وضع الحديث .

(2)

يتكون كل حديث من جزئين . الجزء الأول وهو سلسلة الرواة الذين يتناقلونه عن بعضهم من مصدره إلى آخر راوٍ فيهم ، على أساس عدالة كل واحد منهم . وتعرف هذه السلسلة بسند الحديث أو اسناده[20] والجزء الثاني هو (متن الحديث) ،

Cela résulte de La nature même des choses) mais qu'elle contienne tant de Parties authentiques (d'apres le Critiques les plus rigoureus, la moitié de Bokhârî mérite Cette qualification) et que, dans ces parties non falsifiées, ils se trouvent tant de choses qui doivent scandaliser un croyant sincère». Essai sur l'histoire de l'Islamisme, Trans V. Chauvin. p.124.

(20) من المهم جداً معرفة طبيعة الإسناد أو معرفة الفوارق التي وضعها علماء مصطلح الحديث وعبّروا عنها بشكل اصطلاحي مستنبط في غاية الإحكام . وهي معرفة مفيدة حتى لأغراض النقد الحديث . ومناقشة هذه الفوارق والمصطلحات هنا يؤدي إلى نوعٍ من التكرار غير الضروري ، لذلك نكتفي هنا بعرض ما كتب سابقاً في هذا الموضوع حسب الترتيب الزمني :

(1) - E.E. Salisburi,

«Contributions From original Sources to, our Knowledge of the science of Muslim **Tradition** », JAOS, VII (1862) pp. 60 - 142 (CF. «Die Zahiriten; ihr Lehrsystem und ihre Geschichte», Beitrag Zur Geschichte der Muhammedanischen Theologie, Leibzig, 1884, p. 22, note 1).

(2) Rev. E. Sell

The Faith of islam (London, and Madras, 1880), pp. 70-72. =

وهو نص الكلام المنقول . ويمكن ملاحظة أن كلمة (متن)[21] لفظة جاهلية ، ولم تَعْنِ في الأصل نصَّ الحديث ، وكانت تستعمل قبل الإسلام للدلالة على « النص المكتوب » . (والأطلال) في الشعر الجاهلي - كما هو معلوم تماماً - تُشَبَّه غالباً بالكتابة[22] . فهي تُشَبَّه تارة بكتابات الرهبان النصارى الغامضة ، أو بكتابة الفرس

---

(3) **T. P. Hughes**

Adictionary of islam (London 1885), s.v. Tradition pp. 639-46.

(4) **F. Risch**

Commentardes «Izz al- Din»Abdallāh Über die Kunstausd- nïcke der Traditions-wissenchaft nebst Erlauterungen, Leiden, 1885.

ولا يجد القارىء قيمة كبيرة في هذه الكتابات عن الاسناد، لأنها لم تخصص في الأصل لهذا الغرض . وأمّا الكتابات ذات الأهمية الأساسية في موضوعنا فهي :

(5) دراسات شبرنجر المتنوعة ، والتي تعد أول تعامل علمي مع الحديث . وهي :

a- Notes on Alfred. V. Kremer's edition of Wakidy's Compaigns, JASB. XXV (1856) pp. 53 - 74, 199 - 220.

b- On the origin of writing down historical records among the Musulmans, Ibid, p. 303 - 29, 378 - 81.

c- Über das Traditionswesen bei den Arabern, ZOMG, X, (1856), pp. 1 - 17.

d- His exursus «Die Sunna», Leben und lehre des Mohammad, III (1865), pp. 1 XXVII - CIV.

(6) **William Muir**

Culturgeschicte des orients Unter den chalifen, (Vienna, 1875), pp. 476 - 504. On Isnad Terms, p. 480.

(وفي الصفحات المشار إليها اشارة إلى الأحاديث التي تنزع الى اتجاه معين)

(7) **Alfred von Kremer**

Culturgeschicte des orients Unter den chalifen , (Vienna , 1875) , pp. 474 - 504 . On isnad Terms , p. 480.

(8) **Snuck Hurgronje**

Nieuwe bijdragen tat des Kennis Von den Islam,BTLV, IV, Part 6 (1883) pp. 36 - 65, of the offprint.

Development of the Concepts of Sunna and Ijma, [Verspreide Geschriften, II, pp.33- 58]

(21) ومن معاني كلمة (متن) أنها تطلق على جزء من جسم الإنسان ، وهذا لا يعنينا هنا .

* (يعني هنا (الظهر) وهو من معاني المتن لغة) .

(22) كان تشبه بالوحي ، وهذا يتردد كثيراً في شعر العرب . كقول زهير (15 ، 5) طبعة لاندبرج ص =

زمن كسرى ، وهلم جرّا[23] .

كما تشبه بالوشم[24] ، وبالنقوش البالية على السيوف القديمة والأغماد[25] . . الخ .

= 104 بيت (3) . أو أن تشبه بالوُحى - بضم الواو وكسر المهملة - كما في معلقة لبيد بيت (2) والذي فسّر بالكتابة .

* (البيت المعنى من قصيدة زهير هو :

لمن طلل كالوحي عافٍ منازلُه عفا الرّسّ منه فالرسيس فعاقله

والبيت المعنى من معلقة لبيد هو :

فمدافع الرّيان عُرّي رسمها خلقاً كما ضَمِنَ الوُحيّ سِلامُها

قال الزوزني : الوحى : الكتابة . وقال التبريزي : الوُحِيّ جمع وَحى وهو الكتاب . ومن هذا القبيل قول المرار بن منقد (المفضليات . تحقيق شاكر وهارون . ط (3) ص 89) :

وترى منها رسوماً قد عفت مثل خط اللام في وحي الزبر)

(23) وثمة شواهد أخرى في كتاب سيجموند فرنكل Siegmund Fränkel Die aramäischen Fremdwörter [im Arabischen , Leiden , 1886] وقارن ذلك باضافاتي في الجزء الأول ص (111) . ملاحظة رقم (1) . وقد يذكر أحدهم ما جاء في شعر الهذليين : آياتها عفر . وعند فلهاوزن : آياتها سفر ، وفي الأغاني 148/21) إياتها سطر .

* (البيت المقصود هنا لأبي صخر الهذلي كما في الأغاني (ج21 ، أخبار أبي صخر الهذلي ونسبه) وهو قوله :

لليلى بذات الجيش دار عرفتها وأخرى بذات البيت آياتها سطر

وفي شرح الهذليين للسكري :

(24) أنظر المفضليات ص 105 . تحقيق شاكر وهارون ، وشرح ديوان الهذليين للسكري (1249/3) ، ومعلقة طرفة . بيت (1) ، المتنخل ، ياقوت (414/1) ، ديوان لبيد ص 151 بيت (2) ، معلقة زهير بيت (2) ، ديوان زهير ، قصيدة (15) بيت (3) أو (صفحة رقم 166 بيت (3) من طبعة لاندبرج) ، ديوان عنترة . قصيدة (27) بيت (1) .

* (البيت المقصود في المفضليات هو البيت الثاني من قول عبد الله بن سلمة الغامدي :

لمن الديار بتولع فيبوس فبياض ربطه غير ذات أنيس

أمست بمستن الرياح مفيلة كالوشم رجّع في اليد المنكوس

وأمّا قول طرفة فهو :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وقول المتنخل وهو مالك بن عويمر كما جاء في شعر الهذليين :

هل تعرف المنزل بالأهَيَل كالوشم في المعصم لم يجمُل

ومن ذلك قوله أيضاً :

كوشم المعصم المغتال عُلّت نواشره بوشم مستشاط =

وهـذا زهـير يصف الأطـلال ذات مـرة بـأنها الـرقش عـلى الـرقّ البـالي[25] (المحيل)[26] .

= كما في شرح اشعار الهذليين للسكري (1266/3) .

وفي ديوان لبيد :

فـكـأن مـعـروف الـديـار بـقـادم فـبـراق غَـوْلٍ فـالـرّجـام وشـوم

وفي معلقة زهير :

ودار لهـا بـالـرقـمـتـين كـأنها مـراجيـع وشـم في نـواشـر مـعـصـم

وفي ديوانه :

يـلحـن كـأنهن يـدا فـتـاةٍ تُـرَجِّـع في مـعـاصـمـهـا الـوشـومُ

وفي ديوان عنترة :

ألا يـا دار عـبـلـة بـالـطّويّ كـرجـع الـوشـم في كـفّ الهَـدِيّ)

(25) انظر شواهد ذلك في : ديوان طرفة ، وقارن بالأغاني (121/2) .

(*) (يعني قول طرفة :

أتعرف رسم الدار قفراً منازله كجفنِ اليمانِ زخرف الوشْيَ ماثلُه

وقول حنين الحيري كما في الأغاني :

يـلوح كـما تـلوح عـلى جـفـونِ الـصـيـقـلِ الخـلـل

(26) قارن بقول طرفة :

كـسـطور الـرق رقـشـه بـالـضـحـى مـرقش يـشـمـه

وفي المفضليات : كما رقش العنوان في الرق كاتب .

وقارن بما ورد في الأغاني من شعر المتأخرين (75/2) .

* (وأول قول طرفة :

أشـجـاك الـربـع أم قِـدَمُـه أم رمـادٌ دارس حُمَـمُـهُ

وما في المفضليات هو عجز بيت للأخنس بن شهاب التغلبي ، وصدره :

لأبـنـه حـطان بـن عـوفٍ مـنـازلٌ

ويعني بما ورد في الأغاني من شعر المحدثين قول جميل بن معمر كما رواه في اخبار ابن عائشة ونسبه :

إنّ المـنـازل هـيّـجـت أطـرابي واسـتـعـجـمـت آيـاتهـا بـجـوابي

قـفـر تـلوح بـذي الـلجـين كـأنها أنـضـاء رسـم أو سـطور كـتـاب)أهـ.

واستخدمت لفظة (محيل) لوصف الأطلال كذلـك . أنظر الأغاني (83/3) ، وهذا يفسّر خطابهم للأطلال :

قـالـوا الـسـلام عـلـيـك يـا أطـلال قـلت الـسـلام عـلى المـحـيـل .

انظر الميداني (235/2) ، وقـارن بما في يـاقوت (648/3) : الطلل المحول . وفي ديـوان زهير رقـاً محيلاً .

وكلمة (المتن) وجمعها (المتون) تنتمي إلى طائفة من المعاني تستخدم في هذه التشبيهات ، كقول الشاعر :

وجَــلاَ السيــولُ عن الــطلول كــأنها زُبْــرٌ تُجِــدُّ مــتــونها أقــلامــهــا[27]

ونجد التشبيه نفسه مع شيء من التهذيب عند شاعر متأخر كالأحوص الذي ليقول في وصفه للمنازل المهجورة :

دوارسُ كالعينِ في المُهـرقِ[28] . وليس لكلمة (العـين) هنا معنى محـدد ما لم تُفَسَّر بأنها ما تقع عليه العين من الكتابة[29] . وعندما تُستبدَل كلمة (المتن) بكلمـة (العين) يستقيم الوصف مع مجموعة التشبيهات التي استشهدنا بها ، مثل : الكتابة القديمة ، آثار الديار المندرسة . . الخ .

---

* (قال الحادرة كما في الأغاني (ج 3 ، أخبار الحادرة) :

لــعــمــرة بــين الأخـر مـين طـلـول تــقــادم مــنـهـا مــسـهـر ومحـيـل

وفي ديوان زهير :

بـلين وتحــسب آيــاتـهـنّ عــن فــرط حــولـين رقّـاً محــيـلاَ)

(27) معلقـة (لبيد رقم 8) . وتـرجم كريمـر في كتابـه Über die Gedichte des labyd ص 6 لفـظة (متونها) بـ (سطورها) .

* (يعني قول لبيد :

وجـلا الـسـيـول عـن الـطلول كـأنها زبـر تجـد مـتـونها أقـلامـهـا

(28) انظر الأغاني (124/7) .

* (جاء في الأغاني (ج 7 ، ذكر جميلة وأخبارها) أن الأحوص كان معجباً بها وكانت لـه مكرمـة فقال في وصفها :

شــاقــتـك المـنـازل بـالأبـرق دوارس كـالـعـين في المـهـرق)

(29) كلمة (عين) مقـابلة لكلمة (ضِمـار) . انظر شـرح اشعار الهـذليين (741/2) . وكـذلك كلمـة (أثر) مقابلة لكلمة (عين) بمعنى الشيء ذاته . كقول لبيد : لا عين منه ولا أثر . وفي مجمع الأمثال للميدان : « تطلب أثراً بعد عـين » . قارن ذلـك بمثال أورده D. H. Müller Burgen und schlösser , i , p. 88 .

* (يعني بما في شرح اشعار الهذليين قول البريق الخناعي :

فــرفــعــت المـصــادر مــســتـقـيـها فـلا عـيـنـاً وجـدت ولا ضـمـارا

يقول السكري : العين : ما تراه ، والضمار : الغائب .

وفي مجمع الأمثال للميداني : تطلب أثراً بعد عين . العين : المعاينة . يضرب لمن ترك شيئاً يراه ثم تبع أثره بعد فوت عينه . (127/1) تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

انظر ديوان لبيد ص 79 بيت (2) . دار صادر بيروت) .

ومن هذا السياق تكتسب لفظة (المتن) معنى (النص المكتوب) (30) . والشأن نفسه مع لفظة (العين)، وهي كلمة قديمة تعني النص المنقول شفهياً(31) .

واختيار كلمة (المتن)(32) لوصفِ نصِّ حديث ما - أيّ نص مدوّن - يتعارض مع توثيقه من خلال سلسلة الرواة - بمعنى أن ذلك لا يستلزم نقد السند بقدر ما يستلزم نقد المتن - ويمكن أن يُعَدَّ هذا دَحْضاً لما يفترضه المسلمون من أن الحديث لم يدوّن في بدايته ، وإنما نُقل في صورة روايات شفهية فقط .

وبالأحرى يمكن أن نفترض أن تدوين الحديث كان من طرق حفظ الحديث

---

(30) على القارىء ان يقاوم وجود هذا المعنى في كلام كعب بن زهير لراويه ايضاً ، الأغاني (ج15 - اخبار كعب بن زهير) : تثقفها حتى تلين متونها . وهذه صورة مأخوذة من وصف الرمح وتظهر هذه الصورة اكثر وضوحاً في قول عدي بن الرقاع . الأغاني (ج 8 - أخبار عدي بن الرقاع) . انظر :
Nöldeke, Beiträge zur Kenntniss der poesie der alten araber [Hanover, 1864] ,p.47.
وهذا المقطع يوضح أيضاً أن رواة الشعر الأوائل لم يكونوا صدى للشعراء فحسب ، بل كان لهم دور في تهذيب اعمال الآخرين التي يروونها . لذلك قد نرى شعراء مشهورين ، كانوا رواةً لشعراء سبقوهم (انظر الكلام عن زهير في كتاب القرت)
Ahlwardt, Bemerkungen über die Echtheit der alten arabischen Gedichte , p. 62) .
وقد قيل في أحد الشعراء أنه : إجتمع له الشعر والرواية . وكثير من المعلومات حول هذا الموضوع توجد بالأغاني (ج٧ - نسب جميل وأخباره) .

* يريد كلام كعب بن زهير في الحطيئة وكان راوية لآل زهير :

يثقفها حتى تلين متونها ... فيقصر عنها كل ما يتمثل

وأوله :

نحن للقوافي شأنها من يحوكها ... إذا ما ثوى كعب وفوّز جرولُ

وأمّا قول عدي بن الرقاع الذي أشار اليه فهو :

نظر المثقف في كعوب قناته ... حتى يقيمُ ثقافُه مُنآدها

انظر معجم الشعراء للمرزباني ص 253 ، تحقيق كرنكو .
والكامل للمبرد (109/2) .
وأمّا ما أشار إليه من ان بعضهم اجتمع له الشعر والرواية فهو كما ذكر في الأغاني (ج 7 - نسب جميل واخباره) . يقول ابو الفرج :
« وجميل شاعر فصيح مقدّم جامع للشعر والرواية ، كان راويه هدبة بن خشرم ، وكان هدبه شاعراً راوية للحطيئه ، وكان الحطيئه شاعراً راوياً لزهير وابنه . وقال أبو محلم : آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير وكان راويه جميل . . . ») .
Fleischer , Kleiner schrift. I, p. 619 .

(31) انظر ملاحظتي على :
قارن بـ : (عروة بن الورد . نشر نولدكة ص 30) الأغاني (ج 2 ص 94) طبعة بولاق 1258 هـ .

(32) من سوء الحظ لم اتمكن من معرفة متى ظهرت كلمة (المتن) في علوم الحديث لأول مرة .

المبكرة ، وأن ذلك النفور من تدوينه كان بكل بساطة نتيجة لأعتبارات متأخرة[33] .

وأقدمُ الأجزاء الحديثة المكتوبة هي تلك التي يقال إنها دوّنت في العقود الأولى[34] . وليس هنالك ما يتعارض مع الأفتراض بأنّ الصحابة وتابعيهم رغبوا في حفظ أقوال النبي وأحكامه - يعني أفعاله - من التحريف والتنزييف ، وذلك بالتقليل من الكتابة .

وكيف للجماعة المسلمة أن تُعْرِضَ عن كتابةِ أحاديث الرسول ، وتتركها للراوية الشفهية وهي التي حفظت لنا أقوال الحكماء في الصحف ؟ (كما سنرى ذلك بشكل متكامل في القسم الأول من الفصل 8) .

وكثيراً ما كان أحد الصحابة يحمل معه صحيفته إلى جماعته لينقل لهم ما فيها من تعاليم نبوية . ومحتوى هذه الصحف كان يُعرف بـ(متن الحديث) .

ثم يقوم الذين رووا تلك النصوص بذكر أسماء الذين رووها عنهم ، وبهذا ينشأ الإسناد وثمة معلومات كثيرة ميسورة عن تلك الصحف التي كتبت في عهود الإسلام الأولى .

وليس من الممكن التأكد مما إذا كان وجود ما يسمى بالصحف أو الكتب يتفق مع الواقع أم أنها صحف موضوعة اختلقها المتأخرون في مواجهة نفاة التدوين .

وصحيفة أسماء بنت عُميس (ت 38 هـ) - وهي زوجة جعفر بن أبي طالب وتزوجت من أبي بكر بعد استشهاده -[35] ستثير دون أيّ شك كثيراً من التحفظ والرَيْبة . ويقال إن هذه الصحيفة قد جمعت أقوال النبي المختلفة ، وقد ذكرها أحد مؤرخي الشيعة[36] ، ربّما لأن « أسماء » هذه كانت على الدوام تقف إلى صف فاطمة . ومن ثمَّ فهي مصدر موثّق لمعرفة الحديث ، فذَاعَ كثير من الأخبار التي رَوَتْها بين الناس كخبر معجزة انشقاق القمر[37] .

---

(33) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب . Keremer , ulturgesch , I, p. 475 .

(34) انظر :

(35) هنالك بعض المعلومات عن هذه المرأة (اسماء بنت عميس) في كتاب الأغاني (ج 11 ، خبر عبد الله بن معاوية ونسبه) .

(36) اليعقوبي : التاريخ (101/2 و115) . دار بيروت للطباعة والنشر 1980 هـ .

(37) يبدو أنّ الحديث لم يلق قبولاً عند أهل السنة ، الأمر الذي جعل أحمد بن صالح (180 - 248 هـ)

وهنالك كتابٌ آخر ظهر منذ فترة مبكرة ، وهو كتاب سعد بن عُبادة (توفي في حوران 15هـ)، وبواسطة هذا الكتاب وضع ابنُه يده على عادات النبي الصحيحة[38] . وهنالك أيضاً صحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص (ت 65 هـ)، وتعرف بالصحيفة (الصادقة)[39] . ولعلّ الصحيفة هي المصدر الذي أخذ منه حفيده عمرو بن شعيب (ت 120 هـ) مادته الحديثية[40] . ولهذا السبب لم يأبهْ نُقّاد الحديث المتأخرون لأحاديث عمرو بن شعيب التي أخذها من صحيفة جدّه ، ولَم يَعُدُّوها صحيحة بشكلٍ كليّ[41]. كما أن هنالك أيضاً أحاديث نقلت من صحيفة سمرة بن جندب (ت60 هـ)[42] . ومن المحتملِ أن يكون ما سجل بهذه الصحيفة ـ والتي يدور حولها بعض الأضطراب[43] ـ مطابقاً لرسالة سمرة إلى ابنه والتي توصف بأنها : « فيها كثير من العلم »[44] .

وأخيراً هنالك صحيفة جديرة بالذكر ، هي صحيفة جابر بن عبدالله (ت 78 هـ)[45]، ويرجع عهدها إلى زمن الصحابة، وثمة من يخبرنا بأن قتادة

يشير إلى هذا النفور بقوله : « لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة » القاضي عياض : الشفاء (185/1) . طبعة الحلبي 1950 م .

* (العجيب أن أسماء بنت عميس ليست ممن رووا حديث انشقاق القمر ، وهذا تدليس من جولد تسيهر، لأن حديث انشقاق القمر أخرجه الشيخان ومن رواته أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وجبير بن مطعم وعبد الله بن عباس . والحديث الذي يعنيه هو حديث رد الشمس لعلي وقد اختلف العلماء فيه ما بين مثبتٍ وناف . وعبارة أحمد بن صالح الذي ذكرها صاحب الشفاء موجودة في مشكل الآثار للطحاوي) .

(38) الترمذي (باب ما جاء في اليمين مع الشاهد) .

(39) وقد ورد ذكرها بين الفينة والأخرى في كتاب ابن قتيبة (المعارف ص 452) ولكنهُ يعزوها خطأً إلى عبد الله بن عمر . قارن بـ : W. Muir , Mahomet, I,P. XXXIII.

[انظر كذلك تقييد العلم للخطيب البغدادي ص 84] تحقيق يوسف العش .

(40) النووي : تهذيب الأسماء واللغات 29/2 الطبعة المنيرية .

(41) الترمذي (باب ما جاء في زكاة مال اليتيم) .

(42) الترمذي (باب ما جاء في احتلاب المواشي) .

(43) ابو داود (كتاب الفتن والملاحم) ويخلط أبو داود بين هذا وكتاب ابن سبرة (ت 162 هـ) فيقول : « كتاب ابن سبرة وقالوا سَمُرة وقالوا : سُمَيْرة » ، أنظر كذلك : المعارف لابن قتيبة ص 305 - 306 ط 4 ، دار المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة .

(44) النووي : تهذيب الاسماء واللغات 263/1 * (وقال ابن سيرين . . . في رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير) .

(45) طبقات الحفاظ 47 . ترجمة (قتادة بن دعامة السدوسي) ، تحقيق علي محمد عمر الطبعة الأولى 1973 .

العراقي (ت 117 هـ) قد رَوَّج أحاديثها[46] .

ويذكر الشيعة طائفة من الكتب يرجع عهدُها إلى زمن مبكر وذلك لتوثيق بعض المسائل التي ليس لها أساس صحيح ، (وأنصار الشيعة اكثر نزوعاً من أهل السنة إلى الرجوع إلى المدوّنات والوثائق التي تحتوي على الحجج المؤكدة لمذهبهم[47] ، ولذلك هم أكثر انتحالاً للكتب من غيرهم)، ولهم تعود نسبة صحيفة أسماء بنت عميس المذكورة آنفاً . ونقّاد الشيعة يعترفون صراحة بوجود آثارٍ يهودية في مصنفاتهم[48] .

وثمة كتاب ، ورثة الشيعة ينسب لشخصٍ اسمه عمارة بن زياد يعتقد أنه كان على صلة بالأنصار ، ويعترف من بثّ هذا الكتاب بين الناس بأن عمارة هذا رجل هبط من السماء ليبلغ أحاديثها ، ثم قفل راجعاً إلى السماء دونما إبطاء . وهذا جعل حتى نقاد الشيعة[49] يقرون بأن عمارة هذا لا وجود له أبداً وأن الكتب التي نسبت إليه هي قطعاً كتب ملفقة .

ومن أقدم الكتب التي ظهرت في هذه الدوائر ، كتاب سُليم بن قيس الهلالي[50] أحد أصحاب علي ، وقد مات في زمن الاضطهاد الذي أوقعه بنو أمية على خصومهم ببطش الحجاج وسطوته[51] .

وظل الشيعة يحيلون على هذا الكتاب حتى وقت متأخر[52] .

---

(46) الترمذي (باب ما جاء في ارض المشترك) : إنما يحدث قتادة عن صحيفة سليمان اليشكري وكان له كتاب عن جابر بن عبد الله » .

(47) انظر مساهمتي في « تاريخ أدب الشيعة » Beiträge Zur Literaturgeschichte der Shī'a [und der sunnitischen polemik in Sitzungsberichte der K. Akademie der Wissenschaften, Vienna , 1874] , p. 55.

(48) قائمة بأسماء كتب الشيعة للطوسي ص 148 .

(49) أعلام الهدى للطوسي الطبرسي ص 236 . (نضر الإيضاح) .

(50) اشتبه الاسم على فلوچل في تعليقاته على فهرست ابن النديم (ص 95) مع اسم رجل يقال له : سُلَيم مات في عهد عثمان . Wüstenfeld, Register Zu den genealogischen Tabellen, p. 430 .

(51) الفهرست لابن النديم ص 219 من طبعة فلوچل ص (275) من طبعة رضا تجدد .

(52) أعلام الهدى ص 354 . المقطع قبل الأخير .

والمدونات القديمة التي ذكرت هنا لم تستوعب على آية حال الصحف والكتب التي استشهد بها باعتبارها وثائق مكتوبة في القرن الأول .

وهنالك أمثلة أخرى من هذا القبيل جمعها شبرنجر[53] ، ويضاف إليها ما ذكرناه آنفاً .

(3)

إن التمييز بين مصطلح (الحديث) ومصطلح (السنة) مسألة واجبة ، وهنالك محاولات عديدة سعت للتعرف على الفرق بين المصطلحين ، إلاّ أن هنالك اصراراً من ناحية أخرى على أن الكلمتين متماثلتان أو هما مترادفتان نسبياً . ولوجهة النظر الأخيرة ما يبررها على قدر الاهتمام بالتطور الأخير لعلم المصطلح الأسلامي . ولكن إذا كان الأعتبار للمعاني الأصلية للكلمتين فقط ، فإنهما قطعاً غير متماثلتين .

والفرق الذي يجب أن يظل في أذهاننا هو أن الحديث - كما بينا قبل حين - هو الخبر الشفهي المروي عن النبي في حين أن السنة في الأستعمال الشائع عند جمهور المسلمين الأوائل ترتبط بغرض ديني أو شرعي بصرف النظر عن وجود روايات شفهية لها من عدمه .

وأيّ قاعدة (حكم شرعي) توجد في حديث ما ، تعد من الطبيعي سنةً[54] ، ولكنه ليس من الضروري أن يكون للسنة حديث مماثل يمنحها التصديق .

ومن الممكن جداً أن يتعارض حديث ما مع السنة[55] . ومن واجب الفقهاء

(53) مجلة جمعية البنغال الأسيوية JASB (1856 م) ص 317 وما بعدها .

(54) مثال ذلك ما جاء في سنن أبي داود من قول النبي في مناسبة وفاة مسلم محرم . ويعلق ابن حنبل على هذا الحديث بقوله : « في هذا الحديث خمس سنن » بمعنى أن هنالك خمسة أحكام دينية معلها ؟ يستند منها « الحكم الشرعي » في الحالات المماثلة .

* (والحديث الذي عناه أخرجه أبو داود في كتاب الجنائز باب المحرم يموت كيف يصنع به . جاء فيه . قال أبو داود : سمعت أحمد بن حنبل يقول : في هذا الحديث خمس سنن : (كفنوه في ثوبيه) أيّ يكفن الميّت في ثوبين (وأغسلوه بماء وسدر) أيّ إن في الغسلات كلها سدراً ، (ولا تخمروا رأسه) (ولا تقربوه طيباً) (وكان الكفن من جميل المال) .

(55) انظر كتاب (التوضيح على التنقيح) لصدر الشريعة (253/2) طبعة المطبعة الخيرية 1322 هـ .

* (قوله : فهذا الحديث مخالف للقياس والسنة والأجماع . يعني حديث (المُصرَّاة) . وجاء في التوضيح تفسيراً لذلك القول : « ووجه كون هذا الحديث مخالفاً للقياس الصحيح أنّ تقدير ضمان =

الحاذقين ومَنْ كان شأنهم التوفيق أن يجدوا حَلاً للخروج من هذا الخلاف .

والتباين بين الحديث والسنة محفوظ في كتب الحديث . فالأول - أي الحديث - ضبط نظري ، والثاني - أي السنة - خلاصة لقواعد عملية ، والميزة الوحيدة المشتركة بينهما هي أن كليهما موجود في الحديث . ويمكن ملاحظة هذا من المثال الثاني :

يميز ابن المهدي بين ثلاثة فقهاء أعلام : سفيان الثوري والأوزاعي ومالك بن أنس بقوله إن الأول كان إماماً في الحديث وليس إماماً في السنة ، بمعنى أنه قد جمع عدداً كبيراً من الأحاديث النبوية ، ولم يكن ممن يستخرجون منها الأحكام والقواعد التي تنظم سلوك الناس العملي في الحياة ، وأن الثاني كان إماماً في السنة وليس بإمام في الحديث (بمعنى أنه كان يعرف الحكم الشرعي ولم يكن من مصادره - أيّ من رواته -) ، ولكن مالكاً كان إماماً فيهما جميعاً[56] . وبنفس الطريقة قيل عن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة أنه كان « صاحب حديثٍ وصاحب سنة »[57] .

وثمة مثال يلفت النظر في كتب الحديث قد يصلح لمعرفة الفرق بين الكلمتين ، وهو خبر موقوف على أنس بن مالك أخرجه أبو داوود في السنن : عن أبي قلابة عن أنس بن مالك قال : إذا تزوج البكر على الثّيب أقام عندها سبعاً ، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً . ولو قلت إنه رفعه لصدقت ولكنه قال : « السنة كذلك » . والمعنى أنه ليس ثمة حديث ينسب إليها ولكن يجب أن تؤخذ على أنها سنة[58] . ويمكن ربط هذا بحقيقة أن السنن تؤكد بشواهد من الحديث لتدعيمها ، حتى أننا نجد كتاباً يحمل عنوان : « كتاب السنن بشواهد الحديث »[59] .

العدوان بالمثل ثابت بالكتاب وهو قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ . وتقديره بالقيمة ثابت بالسنة وهو قوله ﷺ : « من اعتق شقصاً له في عبد قُوّم عليه نصيب شريكه إن كان موسراً » وكلاهما ثابت بالاجماع المنعقد على وجوب المثل أو القيمة عند فوات العين ») .

(56) شرح الزرقاني على الموطأ 4/1 * (وهو ابن مهدي لا ابن المهدي) .

(57) طبقات الحفاظ للسيوطي ص 122 . ط (1) 1973 تحقيق علي محمد عمر . والكلام لابن معين .

(58) أبو داود (كتاب النكاح ، باب في المقام عند البكر) .
* (والكلام المشار إليه عند أبي داود هو : عن أنس بن مالك قال : إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً ، وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثاً ، ولو قلت إنه رفعه لصدقت ، ولكنه قال : السنة كذلك) .

(59) ابن النديم : الفهرست ص 230 طبعة رضا تجدد * (عند الكلام عن فقهاء الحديث واصحاب الحديث ، والكتاب المشار إليه للمروزي) .

(4)

كان مفهوم السنة مؤثراً منذ البدء باعتباره مقياساً لتصحيح نظام الحياة الفردي والجماعي عند العرب الذين اعتنقوا بظهور الإسلام منهجاً للحياة ونظاماً اجتماعياً يتفق مع المعتقدات الدينية الإسلامية .

ولم يكن هنالك ما يدعو المسلمين لابتداع هذا المفهوم ودلالته العملية ، إذ انهم عاشوا بين ظهراني وثنيي الجاهلية (أنظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص 46) ، وكانت السنة عندهم هي كل ما يتفق مع تراث العرب وأعرافهم وعاداتهم . وبهذا المعنى ظلت الكلمة ـ أي السنة ـ مستعملةً في العهود الاسلامية من قبل الجماعات العربية التي لم تتأثر بالدين الإسلامي إلاّ قليلاً[60] .

ثم تعرّض المفهوم القديم لكلمة (السنة) للتغيير تحت تأثير الإسلام . وكان المقصود بالسنة عند اتباع محمد والجيل الأول من المؤمنين هي أعمال النبي وأعمال الصحابة الأوائل .

وكان على الجماعة الإسلامية طاعة السنة الجديدة وتوفيرها كما كان يفعل العرب الوثنيون بسنن أسلافهم . والمفهوم الإسلامي للسنة عبارةٌ معدّلة من الآراء العربية القديمة . لذلك يقول النبي : « لتتبعّن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبٍ تبعتموهم »[61] [62] .

والظاهر أن انتشار السنة كان قبل كل شيء بين أهل المدينة الأتقياء . وأقدم

---

(60) الأغاني (ج 7 ، ذكر يزيد بن الطثرية وأخباره) ، المصدر السابق (ج 3 ، ذكر ذي الأصبع) وليس هنالك أثر للاسلام بين هؤلاء الناس الذين ذكروا في الأغاني .
* (الشاهد الأول من الأغاني قول فذيك بن حنظلة يهجو يزيد :
وإنـا لـسـيـارون بـالـسـنـة الـتي   احـلـت وفـيـنـا جـفـوة حـين نـظلم
والشاهد الثاني قول ذي الاصبع العدواني :
ومـنـهـم مـن يجـيـز لـنـا س بـالـسـنّـةِ والـفـرض)
(61) الدميري : حياة الحيوان الكبرى (574/1) ، وفيه : لو دخلوا عريش نحل .
* (على الرغم من أن كتاب الدميري لا يعتمد عليه في مثل هذه الموضوعات ، فإنّ روايته صحيحة وفيها : لو أنهم دخلوا جحر ضب ، وليس فيها ذكر للنحل ألبتة . كما نظرت في مادة (النحل) من الكتاب نفسه ، فلم أجد ذكراً لهذا الحديث بالمرّة ، وأحسبّه تدليساً من جولد تسيهر) .
(62) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب لتتبعنّ سنن من كان قبلكم) . قارن بما ورد في ابن ماجة : (كتاب الفتن ، باب افتراق الأمم) .

الأقوال ـ التي تحض الناس على اتباع العادات والسلوك التي كانت في عهد السلف وتحارب كلّ أنواع الابتداع المخالف لتلك العادات ـ يحمل سمة المدينة .

وطبعاً لهذا القول حَرّم النبي المدينة فلا يقطع شجرها ، ومن أحدث فيها حدثاً لعنه الله وملائكته والناس أجمعون[63] . والمقصود حقيقةً بالحدث البدعة السياسية ، أي الأنشقاق السياسي[64] .

والاعتراف الإسلامي بحكومة بنيت على أساس شرعي ، تقع في دائرة السنة ، هو في الوقت نفسه طاعة للأحكام الشرعية الأخرى .

وفي المواقع استخدمت كلمة (الحدث) منذ فترة مبكرة بمعنى الأبتداع في العبادة . فهذا أبٌ يقول لابنه وقد جهر بالبسملة في الصلاة ، وكان عليه أن يسرّ بها كما هي السنة المفترضة :[65] « يا بنيّ إياك والحدث»[66] .

وفي بعض روايات الخبر الذي نحن بصدده في هذا المقام اقحمت عبارة : « ومن آوى محدثاً » قبل ذكر اللعن في الحديث المذكور »[67] .

وتظهر الفكرة نفسها في نصّ خبر آخر وجد لغرض محاربة ما يعتقده الشيعة أنصار علي من أنّ الله قد خَصّ علياً بعقائد خاصة ، وقد منعها عليّ علَى المؤمنين الآخرين .

وقد حاول الإسلام السنّي أن يدفع هذه العقيدة بكثير من الأحاديث ، فجاء في

---

(63) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب اثم من آوى محدثاً) [قارن بكتاب فلهاوزن : Reste arabischen Heidenthums, p. 70] .

(64) الأغاني (144/21) وفيه : « ما أحدثت في الاسلام حدثاً ، ولا أخرجت من طاعة يداً » .

(65) الترمذي (باب ما جاء في ترك الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم) .

* (والخبر الذي أورده الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال : سمعني أبي وأنا في الصلاة أقول بسم الله الرحمن الرحيم . فقال لي : أيّ بنيّ محدَث . إياك والحدث . قال : ولم أر أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان ابغض إليه الحدث في الإسلام ، يعني منه . .) .

(66) قارن بـ Literaturgesch. der Schi'a , p. 86.

(67) (البخاري (فضائل المدينة ، باب حرم المدينة) ، (الجزية ، باب ذمة المسلمين وجوارهم ، باب إثم من عاهد ثم غدر) ، الترمذي (باب الولاء والهبة ، ما جاء في من تولى غير مواليه أو إدعى إلى غير أبيه) .

رواية لإبراهيم التيمي من العراق (ت 92 هـ) عن أبيه أنه قال : « خطبنا عليّ فقال : من ظَنّ أنّ الله قد أخصنا بشيء غير كتاب الله وما في هذه الصحيفة فقد كذب » .

ويعني صحيفة كانت معلقة في قراب سيفه وتحتوي على أحكام تتعلق بضمان التلف الذي ينجم عن الحيوانات وأضرار أخرى[68]. وفيها أيضاً أنّ النبي قال : « المدينة حرم ما بين عين وثور[69] . من أحدث فيها حدثاً فعليه . . » وثمة أحكام أخرى ـ تتعلق بتكافؤ المسلمين وحرمة النسب غير الصحيح[70] ، وردت في هذه الصحيفة[71] .

وها نحن أولاء نرى مجموعة الأحاديث المحّرمة للأبتداع ذات صلة خاصة بالمدينة ، وقد اصبحت المدينة معقلاً للسنة وأقدم مصدر لظهورها ونموها . وفي المدينة عاش أولئك الذين كانوا أولَ من تلقوا أقوال النبي وانتظمت بها حياتهم ، ولهذا سميّت أيضاً بدار السنة[72]. ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد ، إذ عندما

---

(68) قد ورد ذلك في صحف أخرى مثل كتاب آل حزم . انظر كتابنا : المذهب الظاهري ص 211 . وفي رواية أخرى لم يأت ذكر للمدنية في الصحيفة . انظر الدارمي (كتاب الديات) .

* (يعني هنا كتاب النبي ﷺ الذي بعثه إلى أهل اليمن مع عمرو بن حزم في الديّات ، وهو غير الصحيفة التي أخرجها عليّ في خطبته والتي سيأتي ذكرها . وكتاب عمرو بن حزم أخرجه النسائي (كتاب القود ، باب عقل الأصابع) ، وأخرجه أبو داود في مراسيله والحاكم في مستدركه (الزكاة) والدارقطني في سننه (كتاب الحدود) .)

(69) وفي رواية (ما بين عير وثور) . وذكر جبل ثور وهو ليس بالمدينة حيرّ المفسرين مما جعلهم يؤولون ذكره في الحديث . انظر شرح النووي على مسلم (518/3) طبعة دار الشعب . وعند ياقوت (939/1) : « بين لابتيها » وهو حد آخر للمدينة .

* (في المتن ما بين عين وثور . وليس ثمة رواية فيها ذكر للعين . والروايات جميعها فيها : ما بين عير وثور أو ما بين عير إلى كذا أو ما بين عائر إلى ثور والأخيرة عند أبي داود) .

(70) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص 126 .

(71) أخرجه مسلم (كتاب الحج ، باب فضل المدينة) .

* (رواية مسلم هذه هي التي ورد فيها ذكر جبل (ثور) ، وأمّا رواية البخاري ففيها : من عير إلى كذا) .

(72) انظر تعليق النووي في تهذيب الأسماء واللغات (ص 362) . والطبري في تاريخه (1820/1 ، والبخاري (كتاب الاعتصام) .

* (الشاهد الذي يريده من تاريخ الطبري قول رجل لعمر بن الخطاب : « ولكن امهل حتى تقدم المدينة ، تقدم دار الهجرة والسنة ، وتخلص بأصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار » . وهو نفس الخبر الذي رواه البخاري في (كتاب الاعتصام ، باب ذكر النبي ﷺ وحضّه على اتفاق أهل العلم وما =

بدأت السنة ـ التي كانت حتى ذلك الوقت مهملة ـ تنتشر في البلدان الأخرى ، تميّزت المدينة بأنها الحارس على المنهج السنّي ، وعَمّ هذا التمييز كلّ البلاد .

وكان الحديث ـ يعني حديث تحريم الحدث ـ موجوداً في العصر العباسي الأول حيث اشترط عمر في كل معاهدة كان يعقدها مع البلاد المفتوحة شرطاً يمنع به ايواء المبتدعة وهو أن « لا يئووا لنا محدثاً »[73] . ويمكن أن نلحظ بسهولة ظهور هذا التعميم من خلال رواية أخرى (مختصرة)، وردت في مصدر مختلف لخطبة عليّ التي ذكرت قبل قليل (حيث استبدلت كلمة قرن بكلمة قراب)[74] ، وجاء فيها بأن : « من أحدث أو آوى محدثاً » ولم يأت فيها ذكر طويل للمدينة[75] .

ولكن الميل إلى التوسيع اللعنة على المبتدعة ظهر بشكل عام أيضاً في أقدم نصّ ، حيث حذفت كلمة (فيها) ـ أي في المدينة ـ من كلام علي ، ليتجاوز الحكم إلى ما وراء المدينة فيعمّ كل بلاد الإسلام[76] .

(5)

يُعَدّ مصطلح «أحدث»[77] أكثر المصطلحات في عهود الإسلام الأولى فيما يتعلق

= أجمع عليه الحرمان مكة والمدينة) وكان أولى بالمؤلف أن يقدّم صحيح البخاري على تاريخ الطبري ، إن لم يكن من الناحية الزمنية فمن الناحية العلمية) .

(73) أبو يوسف : كتاب الخراج ص 42 .

* (في كتاب الخراج أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا صالح قوماً اشترط عليهم أن يؤدوا من الخراج كذا وكذا ، وأن يقروا ثلاثة أيام ، وأن يهدوا الطريق ولا يمالئوا علينا عدونا ، ولا يؤووا لنا محدثاً) .

(74) لعلّ هذه الكلمة يمكن أن تفسر بالرواية التي جاء فيها : « كتب كتاباً في الصدقة فقرنه بسيفه » الخراج (فصل في الصدقات) ص 82 .

* (الخبر كما في الخراج رواه الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً في الصدقة فقرنه بسيفه أو قال بوصيته . فلم يخرجه حتى قبض ﷺ) .

(75) الأغاني (159/3) .

* (ومنذ متى عدّ كتاب الأغاني من مصادر الحديث حتى يستشهد بما جاء فيه من أحاديث على أحاديث أخرى وردت في كتب السنة المعتبرة) .

(76) الحديث الذي يرويه ابو داود في سننه (كتاب المناسك ، باب في تحريم المدينة) ليس فيه ذكر لكلمة (فيها) .

(77) وهذا التعبير يسند حتى لله ، إذ جاء في الحديث الذي أخرجه أبو داود (كتاب الصلاة ، باب رد السلام في الصلاة) : عن عبد الله قال : كنا نسلم في الصلاة ، ونأمر بحاجتنا ، فقدمت على رسول الله وهو يصلي فسلمت عليه فلم يردّ عليّ السلام فأخذني ما قدم وما حدث ، فلما قضى رسول الله ﷺ =

بالبدع التي لم تُبْنَ على أساس العادات أو الأعراف القديمة لعهود السنة . وتستدل عائشة بقول النبي ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ »[78] . أو في رواية أخرى : « من عمل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ »[79] . ومن هذا نشأت عقيدة « شر الأمور محدثاتها »[80] أو كما قال حسان ابن ثابت : « إنّ الخلائق فاعلم شرّها البدع »[81] .

والامتثال للسنة يمنع بشكل قوي كل أنواع السلوك المخالف[82] . ومقياس

= الصلاة قال : « إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإنّ الله جَلّ وعزّ قد أحدث من أمره أن لا تكلموا في الصلاة » .

* (لا يفرق صاحبنا هنا بين المعاني اللغوية للكلمة والمعاني الاصطلاحية . والمعاني اللغوية سابقة على الاصطلاحية ، فلا تصرف الكلمة عن معناها اللغوي إلاّ إذا كان المراد المعنى الاصطلاحي قطعاً ، وليس الحدث هنا بمعنى الابتداع حتى يلحقه الذمّ . وقد يكون بمعنى البدعة اللغوية وهي الاختراع على غير مثال . والحدث لغةً : الابتداع والايجاد والانشاء . ونظير ما جاء في الحديث قوله تعالى : ﴿ فلا تسئلني عن شيء حتى احدث لك منه ذكراً ﴾ الكهف /70 . وقوله تعالى : ﴿ لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ الطلاق /1) .

(78) وفي رواية (ما ليس فيه) . والحديث اخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ، والبخاري (كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود) ، وابو داود (كتاب السنة ، باب في لزوم السنة) ، ابن ماجة (المقدمة ، باب تعظيم حديث رسول الله) ، والحديث استشهد به محمد بن الحسن الشيباني في السير الكبير (148/1) طبعة حيدر آباد سنة 1335 هـ .

(79) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ) ، وفي أبو داود (كتاب السنة ، باب لزوم السنة) : « من صنع أمراً على غير أمرنا فهو رد » .

(80) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسوّل الله) . وعبارة « شر الأمور محدثاتها » يستعملها في الاحتجاج ضد الخصوم الشاعر الشيعي أبو هريرة العجلي . انظر : Fragm . hist. arab. p. 230. السطر الرابع من الأسفل .

(81) ابن هشام : السيرة 210/4 . الأغاني (ج 4 ، اخبار حسان بن ثابت ونسبه) .

* (هو عجز بيت من قصيدة قالها حسان جواباً على قول الزبرقان بن بدر مفتخراً في حضرة الرسول وقد قدم في وفد من بني تميم ، يقول الزبرقان في اولها :

نحن الملوك فلا حيّ يقاربنا ... منّا الملوك وفينا يؤخذ الربعُ

فأجابه حسان بقصيدة أولها :

إن الذوائب من فهر واخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبعُ

وجاء فيها :

سجية تلك منهم غير محدثةٍ ... إنّ الخلائق فاعلم شرها البدعُ)

(82) الغزالي : الأحياء (78/1 - 80) عند كلامه عن آفات العلم . وقد جمع اقوالاً كثيرة تتعلق بالموضوع .

السنة هو بالأخص الأوامر الشرعية المباشرة والاقرارات الضمنية أو أعمال النبي التي لم يتطرق إليها شك .

والسنة هي كل ما حكم به النبي ـ سواء ارتبط بموقف معين أو لم يرتبط ـ ومن ذلك قولهم : صار أو كان سنة[83] أو كما يقال : جرت[84] أو مضت السنة إليه[85] أو به[86] .

وفي الحالات التي ينعدم فيها وجود قانون ثابت ، يبحث الصحابة (الأتقياء) عن الدليل الشرعي في الأسلوب الذي قضي به النبي ﷺ في تلك الأحوال والظروف . وإذا وجد هذا الدليل فإنه يصبح أساساً للسنة ازاء الحالة التي فيها شك أو ارتياب . ففي عهد عمر بن عبد العزيز لم يكن حدّ سن الرشد معروفاً حتى حدّث

---

(83) البخاري (كتاب اللباس ، باب الازار المهدّب وكتاب التفسير ، تفسير سورة النور ، وكتاب الأيْمان ، باب من مات وعليه نذر) .

* (جاء في كتاب اللباس من صحيح البخاري أنه ﷺ قال لأمرأة رفاعة القرظي : لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة . لا ، حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته ، فصار سنةً بعد . وجاء في تفسير سورة النور من الصحيح نفسه أن سهل بن سعد حدّث أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت رجلاً رأى مع امرأته رجلاً أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فيها ما ذكر في القرآن من التلاعن . . . فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله ﷺ ففارقها فكانت سنةً أن يفرّق بين المتلاعنين وكانت حاملاً فأنكر حملها وكان ابنها يدعى إليها ، ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لها .

وفي كتاب الأيمان من صحيح البخاري أن سعد بن عبادة الأنصاري استفتى النبي ﷺ في نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فأفتاه أن يقضيه عنها ، فكانت سنةً بعد)

(84) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب ما يكره من التعمق والتنازع) ، وأبو داود (كتاب النكاح ، باب في اللعان) .

* (الخبر الذي يعنيه جولد تسيهر هنا هو نفس خبر سهل بن سعد الساعدي في اللعان وجاء في نهاية الخبر : فجرت السنة في المتلاعنين . . .) .

(85) الموطأ للامام مالك (كتاب العتق ، باب القضاء في مال العبد إذا عتق) . وفي تهذيب الأسماء واللغات للنووي : « إذا قال سعيد بن المسيب : مَضَت السنّةُ . فحسبك به » 220/1 الطبعة المنيرية .

* (في الموطأ عن ابن شهاب : مضت السنة أن العبد إذا اعتق تبعه ماله . والكلام الذي أورده النووي هو قول لعلي بن المديني) .

(86) الاغاني (ج 15 ، أخبار محمد بن صالح العلوي ونسبه) . وفي كتابي عن الظاهرية ص 220 سطر 7, 8.: سنة قاضية وهو خطأ والصواب : سنة ماضية .

* (والبيت المشار إليه لمحمد بن صالح في مدح المتوكل رواه صاحب الأغاني كما ذكر وفيه يقول :

نطق الكتاب لكم بذاك مصدقا ومضت به سنن النبي الطاهر)

نافع فقال : حدثني ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزني ثم عرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني . قال نافع : فقدمت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فحدثته هذا الحديث فقال : إن هذا الحدّ بين الصغير والكبير ، وكتب الى عماله أن يفرضوا لمن بلغ خمس عشرة(87) .

ولا يمكن لرأيٍ فقهي أو حكمٍ ما أن ينال القوة الشرعية في أعين المسلمين الأتقياء دون هذا المسند ، حتى إن اتباع السنة الأتقياء كانوا كلما واجههم حكم جديد يسألون : « أسمعت هذا من الرسول أم هو رأي »(88) .

ولم يطبق منهج السنة في الموضوعات المتعلقة بأحكام الحياة الجماعية والسلوك الأجتماعي فقط ، بل تجاوز ذلك الى موضوعات اكثر ابتذالاً ، وإلى المعاملات في الحياة الخاصة وعلاقاتها ، ولذلك فالمسلمون الأتقياء بحثوا عن السنة لاقتباس الدلالة المناسبة من طريقة حياة النبي ، لكي يتأسّوا بها ويجتنبوا مخالفتها .

فمثلاً المعيار الوحيد لمعرفة جواز لبس خاتم الذهب من عدمه هو معرفة ما إذا كان النبي ﷺ لبسه أم لا(89) . وحتى طرح الأساليب الحميدة والسلوك الأجتماعي كان محدداً بالرجوع إلى السنّة .

ولقد نظمت السنة اشكال الترحيب والأمنيات الطيبة ، فإذا أراد شخص ما أن يعرف ماذا يقول للعاطس فإنه سيجد ذلك في السنة ، ولن يكون مسلماً جيداً إذا شمت العاطس بكلام من عنده يبتدعه ، وسيكون حاله أسوأ إذا اتّبع في تشميت العاطس عرفاً أجنبياً .

---

(87) البخاري (كتاب الشهادات ، باب بلوغ الصبيان وشهادتهم) ، الخراج لأبي يوسف ص 188 ، عند الكلام عن الحدود على أهل الجنايات .

(88) أبو داود (كتاب الصوم ، باب في التقدم) .

* (وقد جاء في خبر أبي داود الذي استشهد به جولد تسيهر أن مالك بن هبيرة السبئي سأل معاوية فقال : يا معاوية ، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ أم شيء في رأيك ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : صوموا الشهر وسرّه) .

(89) البخاري (كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ) .

* (جاء في البخاري في الباب المذكور عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب ، فقال النبي ﷺ : إني اتخذت خاتماً من ذهب فنبذه وقال إنّي لن ألبسه أبداً فنبذ الناس خواتيمهم) .

وهـذا أحد أتقيـاء مؤرخي الإسـلام يـرى أنـه من الخـطأ ألاّ يتّبـع الخلفـاء العباسيون السنة في أدب البلاط ، وأن يتبعوا عادات الأعاجم الأكثر تهـذيباً ، كـما أنهم لم يأذنوا للناس العاديين أن يقتربوا منهم بآمانيهم ورغباتهم بالطريقة المألوفة[90] .

ولقد وبّخ أحد البرامكة أعرابياً لأنه شمت الخليفة بالطريقة المعتـادة ، فوافق الخليفة على فعل موظفه بقوله : « أصاب الرجل السنة وأخطأ الأدب » .

ولم يستطع المؤرخ التقي أن يمسك مع ذلك عن التعليق فقال : « وهل كانت العادات المهذبة في مكان غير سنة النبي »؟![91] .

وفي جوامع السنة المختلفة ، وفي أبواب (الأدب) و(اللباس) عدد من الأمثلة تبرهن على هذه النقطة ، ونكتفي هنا للاستشهاد بذكر مثال واحد[92] : « عن عبيد بن جريج أنه قال لعبد الله بن عمر : يا أبا عبد الرحمن رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها . قال : وما هنّ يا ابن جريج ؟

قـال : رأيتك لا تمسُّ من الأركـان إلاّ اليمانيـين[93] ، ورأيتك تلبس النِّعـال

---

(90) ابن عبد ربه : العقد الفريد (135/1) . (فرش مخاطبة الملوك) الطبعة الأزهرية 1321 هـ .

* (والكلام الذي يعنيه في العقد الفريد : قال يحيى بن خالد البرمكي : مسائلة الملوك عن حالها من سجية النوكي فإذا اردت أن تقول كيف أصبح الأمير ، فقل : صبّح الله الأمير بالنعمة والكرامة ، وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة فإن الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيّف . . .) .

وقول يحيى البرمكي يلقي كثيراً من الضوء على القصة التي سيوردها المقـريزي في السلوك الـلائق مع الملوك .

(91) المقريزي ص 56 . حتى إنّ اكبر عمالهم أحاطوا انفسهم بأبهة أكثر مما كان مألوفاً في العهود الأولى . أبو المحاسن 379/1 .

* (لم اهتد إلى كتاب المقريزي الذي يعنيه ، كما لم اعرف من ابو المحاسن هذا ونظرت في كتب الأعلام فلم أقع على قرينة تهديني إليه) .

(92) الموطأ (كتاب الحج ، باب العمل في الأهلال) الشيباني ص 222 ، البخاري (كتاب اللباس ، باب النعال السبتيّة) ، أبو داود (كتاب الحج باب استلام الأركان) .

(93) وكانت تلك عادة عربية قديمة لتوقير الأركان الأربعة . انظر الموطأ (كتاب الحج ، ما جاء في بناء الكعبة والاستلام في الطواف).، وبقي ركن واحد منها معظّماً بشكل ظاهر في أول الاسلام (أنظر شرح ديوان الهذليين (1046/3) : ومستلم اركانه متطوّف . وقارن ذلك بما جاء في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص 13 . الطبعة 4 . دار الثقافة 1980) قبل أن تنتشر السنة وبعد ذلك اعتبر الركنان اليمانيان فقط . ومن هذه النقطة قيل إن معاوية سلك مسلكاً مغـايراً لمـا جاءت بـه السنة بقـوله : « ليس شيء من البيت مهجوراً » انظر الترمذي (كتاب الحج ، بـاب ما جـاء في استلام الحجـر والركن اليمـاني) وفي رواية

السِّبتية ، ورأيتك تصبغ بالصفرة[94] ، ورأيتك إذا كنت بمكـة أهَلَّ النـاسُ إذا رأوا الهلال ولم تُهلِل أنت حتى يكون يوم الترويه[95] . فقال عبدالله بن عمر : أمّا الأركان فإني لم أر رسولَ الله ﷺ يمسُّ منها إلاّ الركنين اليمانيين ، وأمّا النّعـال السِّبتية فـإني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النّعال التي ليس فيها شعر[96] ويتوضأ فيها فأنا أحب أن ألبسها ، وأمّا الصفـرة فإني رأيت رسـول الله ﷺ يَصْبُغُ بهـا ، فأنـا أحبُّ أن أصْبُغَ بها[97] ، وأمّا الإهلال فإني لم أر رسولَ الله يُهِلُّ حتى تنبعث به راحلته » .

(6)

إنّ سلطان السنة باعتبارها مبدأ فعّالاً في حياة المسلم قديم قدم الإسلام ، وفي نهاية القرن الأول وضعت القاعدة التي تقول بأن : « السنة قاضية على القرآن وليس

= لـلازرقي (تاريـخ مكة 331/1 تحقيق رشـدي الصالـح . دار الأندلس) لم يكن السؤال عن استـلام عبد الله للركنين فقط بل كان عن حرصه على استلامها في كل الأحوال . قارن بما في النسائي (بـاب الوضوء في النعل ، وكتاب المناسك) حيث جزّء النسائي الحديث في سننه إلى فقرات .

* (نعم كانت بعض مناسك الحج معروفة للعرب قبل البعثة بكثير . انظر (السيرة النبوية لابن هشام 119/1 - 128) ولكن ذكر تعظيم الأركان الأربعة أو التمسح بها ، أو استلامها على أنها عادة عربية قديمة لم يرد في الموطأ وإن ورد في مصادر أخرى تاريخية أو ادبية وكل ما جاء في الموطأ هو ذكر بناء البيت على قواعد ابراهيم . ولمعرفة المزيد عن الحج في الجاهلية ينـظر تاريـخ مكة لـلازرقي (179/1 - 195) . واحسب جولد تسيهر أخطأ هنا في احالته على الموطأ .

والبيت الذي أشار اليه من ديوان الهذليين هو لمُلَيح بن الحكم :

فَهُمَ يَحْـطِمُـون البـيـت مـنهـم مـكـبّـر ومـسـتـلمٌ اركـانَـه مـتـطوّفُ

والذي جاء في الشعر والشعراء هو قول الشاعر :

ولّمـا قـضـيـنـا مـن مِـنىً كـلَّ حـاجـة ومـسّـح بـالأركـان مـن هـو مـاسِـحُ

والبيت ينسب إلى عدد من الشعراء منهم كثير بن عزة ويزيد بن التطرية وعقبة بن كعب بن زهير . انظر تخريجه في سمط اللآلي 77/3 بتحقيق عبد العزيز الميمني طبعة دار صادر بيروت .

وخبر معاوية كما في الترمذي عن أبي الطفيل قال : كنا مع ابن عباس ومعاوية لا يمر بركن إلاّ استلمه فقال له ابن عباس : « إنّ النبي ﷺ لم يكن يستلم إلاّ الحجر الأسود والركن اليماني فقال معاوية : ليس شيء من البيت مهجوراً ») .

(94) النووي : تهذيب الأسماء واللغات (ص 83) من الطبعة المصرية الأولى .

* (لم أهتد للشاهد في الطبعة المنيرية للتفاوت الكبير بينهما في عدد الصفحات) .

(95) Snouck Hurgronje, Het Mekkaansche Feest, p. 75. note 1.

(96) قارن بما جاء في سنن النسائي (كتاب الطهارة ، باب الوضوء في النعل) .

(97) المصدر السابق (كتاب الزينة ، الخضاب بالصفرة) .

القرآن بقاضٍ على السنة »[98] . وفضلاً عن ذلك ، فإن مقارنة الشواهد المأخوذة من فترات زمنية مختلفة تقود إلى استنتاج أن السلطة الممنوحة للسنة ـ مع الأخذ في الأعتبار الآراء النظرية للدوائر الدينية ـ قد تزايدت باستمرار مع الزمن . وقول مكحول (ت 112 هـ) يبين أن حرية الأختيار كان مسموحاً بها في العهود الأولى في التطبيق العملي للسنة ، وفي حديث أن النبي قال لرجل لم يكن قادراً على أن يُمْهِر زوجه : « التمس ولو خاتماً من حديد » . لأن المهر عامل مهم في العقد بين الزوجين ، وأن تعليم الزوجة بعضاً من آيات القرآن يكفي لكي يكون مهراً . ويصرّح مكحول دونما تردد بأن حكم الرسول لا يمكن بأية حال أن يكون قاعدة مقبولة على وجه العموم[99] . والشأن نفسه عند الزهري (ت 124 هـ) الذي يصرّح في حرّية بأن حكم الرسول متساهل للغاية فيما يتصل بأحكام الصوم ، ولا يمكن أن يؤخذ كسابقة بل يؤخذ على أنه خصيصة للرسول[100] . وهذا الأمر جعل العلماء يستغلون هذه الملاحظات فيما بعد عندما حاولوا أن يكبحوا الهوس نحو السنة أو الولع بها الذي بلغ درجة السخف[101] .

ومما تجدر ملاحظته عموماً أن رفع السنة إلى مكانة تستوي فيها مع القرآن في التشريع أخذت تتزايد أكثر فأكثر في الاستدلال ، فكلّ ما حكم به النبي في أمور دينية ـ وهو ما يعرف في المصطلح الشرعي بسنن الهدى[102] ـ هو حكم بأمر الله أوحى

---

(98) سنن الدارمي (باب السنة قاضية على كتاب الله) . (117/1) من طبعة عبد الله هاشم اليماني 1966 م . والقول منسوب إلى يحيى بن أبي كثير (ت 120 هـ) عند الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية ص 14 طبعة حيدر اباد .

* (انظر كذلك مختلف الحديث لابن قتيبة ص 198 تحقيق زهري النجار) .

(99) ابو داود (كتاب النكاح ، باب في التزويج على عمل يعمل) * (وذلك بقوله : ليس ذلك لأحد بعد رسول الله) .

(100) المصدر السابق (كتاب الصوم ، باب كفارة من أتى أهله في رمضان) وفيه : زاد الزهري ، وإنما كان هذا رخصة له خاصة .

* (انظر تعليقنا على هذا الكلام) .

(101) انظر كتابنا (الظاهرية) Zâhiriten ص 81 - 85 .

(102) أبو داود (كتاب الصلاة، باب في التشديد في ترك الجماعة) : « إن الله شرع لنبيّه سنن الهدى » . . (جاء في سنن أبي داود في الكتاب والباب المذكورين عن عبد الله بن مسعود قال : « حافظوا على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادى بهن ، فإنهن من سنن الهدى ، وأنّ الله شرع لنبيّه ﷺ سنن الهدى » أخرجه ايضاً ابن ماجة في سننه (كتاب المساجد ، باب المشي إلى الصلاة).)

إليه كما لو أنه القرآن أو كما يبدو للمؤمنين أن جبريل نزل به من عند الله . وهذا أنس بن مالك يقول : « خذ عني فإنك لن تأخذ عن أحد أوثق مني ، إني أخذته عن رسول الله ﷺ ، وأخذه رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عَزّ وجل »[103]. وهذا المصدر الألهي للأحكام الحديثية والتطبيقات النبوية لم يؤخذ بالتسليم في العهود الأولى . ودليل ذلك قول عمر بن عبد العزيز لعروة بن الزبير : « أعلم ما تقول »[104] لما أخبره الأخير بخبر الوحي في مواقيت الصلاة (التي لم تكن قد ترسخت حتى في العصر الأموي) ، إلاّ أنّ هذه الحيرة تبددت مع تطور فكرة ألوهية مصدر الحديث في القرنين الثاني والثالث . وَعُدّ القرآن والسنة على أنهما ذووا أهمية متكافئة تماماً .

وفي منتصفُ القرن الثاني حَسَمَ محمد بن الحسن الشيباني مشكلة ما إذا كانت أحكام السنة تنسخ أحكام القرآن[105] . ولم ير الشافعي هذا الرأي مثيراً[106] .

وفي القرن الثالث تلقى القاضي الخصّاف (ت 261 هـ) بالقبول الرأي القائل بأن السنة المتواترة (وهي السنة المتميزة بسلسلة متصلة من الرواة » لها قوة مساوية لما للقرآن[107] .

---

(103) الترمذي (مناقب انس بن مالك) .

(104) ابو داود (كتاب الصلاة باب في المواقيت) .

* (في أبي داود أنّ عمر بن عبد العزيز كان قاعداً على المنبر فأخّر العصر شيئاً فقال له عروة بن الزبير : أما إن جبريل ﷺ قد أخبر محمداً ﷺ بوقت الصلاة . فقال له عمر : اعلم ما تقول . فقال عروة : سمعت بشير بن أبي مسعود يقول : سمعت أبا مسعود الأنصاري يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نزل جبريل ﷺ فأخبرني بوقت الصلاة فصلّيت معه ثم صلّيت معه ، ثم صلّيت معه ، ثم صليت معه ثم صليت معه » يحسب بأصابعه خمس صلوات . . . » وهذا الحديث أخرجه البخاري (كتاب الصلاة ، باب المواقيت) وفيه : اعلم ما تحدث . وأخرجه ابن ماجة (كتاب المواقيت) وأخرجه مسلم والنسائي) .

(105) الشيباني : كتاب السير الكبير 68 . وفيه : (ونسخ الكتاب بالسنة المشهورة التي تلقاها العلماء بالقبول جائز) .

(106) السيوطي : الإتقان 21/2 ط (3) الحلبي 1951 . [قارن بـ : شاخت : أصول الفقه المحمدي ص 15 ، 46 ، 47] .

* (في الاتقان للسيوطي : « وقال الشافعي حيث وقع نسخ القرآن بالسنة فمعها قرآن عاضد لها ، وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سنة عاضدة له ليتبين توافق القرآن والسنة » .

(107) [الخصاف : ادب القاضي (أعلى ورقة 7 أ) مخطوط بليدن] .

* (لاحظ تعريفه الفاسد للحديث المتواتر ، وذلك مبلغ علمه من مصطلح الحديث) .

ويدافع عصريّه ابن قتيبة عن فكرة المصدر السماوي للسنة ، ويقدم لذلك الأسباب[108] . كما أخذ التشبّه بالسلف (وهم أولئك الذين هذّبوا طباعهم على عيني النبي ، وكانوا به يقتدون) يتزايد أكثر فأكثر ، وأصبح المثل الأعلى للمسلمين الصالحين[109] . وبالتدريج أصبح نعت الرجل بأنه سلفّي (أيّ المتشبه بالسلف)[110] أسمى علامات الأكبار في المجتمع الصالح .

والنظر للحياة بهذه الصورة أنجب قطعاً المتعصبين للسنة الذين كان همهم البحث عن الأدلّة في عادات النبي وأصحابه[111] ، والبحث عن المناسبات لتطبيقها خوف النسيان .

وإحياء السنة[112] تسمية أطلقت على إحياء عادة مهجورة[113] ، كما كان غاية المنال في أعين السلف الأتقياء والحكام أن ينعت أحدهم بأنه أحيا سنة الأولين[114] . وهكذا فإن من أحيا سنة ميتة فله أجرها وأجر من عمل بها[115] . وقد شاركت في أحياء السنن كلُّ بلاد الأسلام ، ويبرهن المغاربة على أنهم أكثر أحياءً للسنن من المشارقة حتى أفرطوا في ذلك . حتى أن عالماً من قرطبة في القرن الرابع الهجري أحيا سنة مهجورة وهي « اللعان » وذلك بملاعنته زوجه في حشد من الناس بالمسجد ولّما

---

(108) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث 195 - 199 . موضحاً رأيه بعدة أمثلة .

* (أنظر كلام ابن قتيبة المشار إليه في تعليقنا على هذه النقطة) .

(109) أبو المحاسن 739/1 : (تشبّه بالصحابة) .

(110) السيوطي : طبقات الحفاظ (ترجمة ابن الصلاح) ص 500 . تحقيق علي محمد عمر . قارن بما ورد في كتاب المشتبه طبعة دي يونج ص 269 .

(111) توجد اشارة تعريض إلى ذلك في مقامات الحريري (مقامة 29) ص 223 الطبعة الثالثة 1950 . مطبعة مصطفى الحلبي بمصر * (هي المقامة المسماة (الواسطية) وفيها : ألا أنهم لو خطب اليهم ابراهيم بن أدهم أو جبلة بن الأيهم لّما زَوَّجوه إلاّ على خمسمائة درهم اقتداء بما مهر الرسول ﷺ زوجاته ، وعقد به انكحة بناته) .

(112) لم يكن مصطلح (احياء السنة) موجوداً في العهود الأولى باستثناء أصله الأول . انظر دراستي : « Muhammedanisches Recht in Theorie und Wirklichkeit » (Ztxschr. F. Vergleich. Rechtswissenschaft , VIII, pp. 409 ff.)

(113) وهنالك تعبير آخر هو (أنعش سنةً) . النووي : تهذيب الأسماء (ص 468) .

(114) ابن ماجة (المقدمة ، باب من احيا سنةً قد اميتت) .

(115) الأغاني (ج 15 ، أخبار محمد بن صالح العلوي ونسبه) .

* (وهو يريد قول محمد بن صالح :

أحييت سنةَ من مضى فتجددت ... وأبنت بدعة ذي الضلال الخاسر)

أخذ عليه معاصروه بأن فعله ذلك لا يتفق مع علوّ مقامه أجابهم : « كنت غايتي الوحيدة أحياء سنة »[116] . وهذا الحاكم الأندلسي الأموي (الحكم) كان يحاول أن يقتصر في حربه ضد النصارى على القتال في أوقات من النهار ، وهي الأوقات التي كان يقاتل فيها النبي المشركين ويعلق راوي الخبر على ذلك بقوله : « وما أحسبه فعل ذلك إلاّ فقهاً وعلماً وتأسّياً بحديث النبي صلّى الله عليه وسلم حيث أمر بالقتال في تلك الساعة » [117] [118] .

كما كان للأسر الحاكمة في المغرب دور في إحياء السنة وذلك ببحثهم عن حقهم الشرعي ، ولم يكن هنالك من هم أكثر فعلاً لذلك من الموحّدين الذين مضى بعضهم في هذا النحو حتى الغاية[119] .

وفي عام 693 هـ أوقف أبو يعقوب استعمال وحدات الوزن المعتادة ، وأمر الفقهاء بأن يستنبطوا المدّ النبوي[120] الذي كان يستعمل في المدينة زمن الرسول [121] . وسميت هذه الأمور بأحياء السنة وفي مقابل إحياء السنة هنالك (إماتة السنة)، وهي إهمال التفصيلات للتطبيقات الشرعية كما حددتها السنة ، ومن هنا فإن (الإماتة) تكون أحياناً صفة للتطبيق الشرعي الذي تكون فيه الشروط والتفاصيل المفروضة بالسنة مهملة على الرغم من أن الحكم الشرعي نفسه مصون ، ومن ذلك قول النبي : « إذا كانت عليكم أمراء يميتون الصلاة »[122] ، وذلك لا يعني

---

(116) انظر الصلة لابن بشكوال طبعة فرنشيسكو جوديرا رقم 19 ص 15 . البخاري (كتاب الصلاة ، باب القضاء واللعان في المسجد) .

* (جاء في البخاري في الكتاب والباب المذكورين عن سهل بن سعد أن رجلا قال : يا رسول الله أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً ايقتله ؟ فتلاعنا في المسجد وأنا شاهد) .

(117) البخاري (كتاب الجزية ، باب الجزية والموادعة) .

* (في البخاري : فقال النعمان ـ أي ابن مقرن ـ : ربّما اشهدك الله مثلها مع النبي ﷺ فلم ينَدّمك ولم يخزك ولكني شهدت القتال مع رسول الله ﷺ كان إذا لم يقاتل في أول النهار انتظر حتى تَهُبَّ الأرواح وتَحْضُر الصلوات) .

(118) ابن عذارى : البيان المغرب (76/2) طبعة برفنسال . وفي الطبعة الثالثة . الدار العربية للكتاب (74/2) .

(119) مجلة الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية (ZDMG) XLI ، ص 106 .

(120) قارن بما ورد في كتاب Mekka لـ : Snouck Hurgonje .

(121) « قرطاس » ص 266 لمعرفة المزيد عن هذا المكيال انظر ، المقري (810/2) وما بعدها .

(122) ابو داود (كتاب الصلاة : باب إذا أخّر الامام الصلاة عن الوقت) . وفي رواية اخرى عند أبي داود : « يصلّون الصلاة لغير ميقاتها » .

أولئك الذين يبطلون فرضية الصلاة ، وإنما يعني أولئك الذين يؤخرونها عن ميقاتها الذي جاءت به السنة .

(7)

وفي موازاة إحياء السنة ، إماتة البدعة ، والبدعة عكس السنة ، ومرادفة لـ (المحدث) أو (الحدث)[123] (والجمع : أحداث)، ويظهر كلاهما في شكل متماثل في الأسلوب العربي[124] . ولا يفهم الفقيه المسلم من البدعة إلّا البدعة العملية ، أيّ كل ما يعمل على غير مثال من عهد الرسول وأصحابه ، ولا سيما في الدين ، أو أيّ شيء لم يطبّق في عهد الرسول[125] ، بالإضافة إلى بدعة العقيدة[126] التي لم ترتكز على أصول حديثية[127] . والبدعة في العموم هي آراء تلقائية تنشأ إلى

= * (الرواية الثانية كما في سنن ابي داود عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : كيف بكم إذا أتت عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها » .)

(123) اليعقوبي : التاريخ (248/2) دار بيروت للطباعة والنشر 1980 . « وقد أمات أبوك السنة جهلاً وأحيا البدع والأحداث المضلة عَمْداً ».

* (وهذا قول لعبد الله بن عباس من كتاب بعث به إلى يزيد بن معاوية) .

(124) ابن هشام : السيرة النبوية 210/4 . وفي قول الأعشى همدان : أحدثوا من بدعة .

* (انظر الإحالة رقم 81. وأما قول الأعشى فهو من قصيدة له ذكرها صاحب الأغاني ولم يعزها إليه وفيها :

وما أحدثوا من بدعةٍ وعظيمةٍ ... من القول لم تصعد إلى الله مصعدا

انظر الأغاني (ج 5 ، أخبار أعشى همدان) .

(125) القسطلاني : ارشاد الساري 342/10 .

(126) « أخو الابداع » مصطلح استعمله احد الشعراء زمن المتوكل في وصف بعض الجهمية وهي عقيدة حاربها المتوكل الذي وصف بأنه (ذو سنة) . انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص 346 (قارن ايضاً لقولهم : أخو الاسلام . تاريخ الطبري 150/2) و(ابْدَعَ) مشتقة من بدع كقوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بِدْعاً من الرسل ﴾ الاحقاف 9 .

* (جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي في ترجمة المتوكل على الله : وقال أبو بكر بن الخبازة :

وبَعْدُ ، فإن السُّنَّةَ اليوم أصبحت ... معزّزة حتى كأنَّ لم تذلل
تصول وتسطو إذ أقيم منارها ... وَحُطَّ منارُ الأفك والزور من عل
وَوَلّى أخو الأبداع في الدين هارباً ... إلى النار يهوى مُدْبراً غير مُقْبِلِ
شفى الله منهم بالخليفة جعفرٍ ... خليفته ذي السُّنَّة المتوكّلِ)

(127) مقدمة مشكاة المصابيح . طبعة دلهي (1851 - 1852 ـ المجلد الثاني) قارن مجلة V, JAOS ص 65 .

حدّ ما من وجهات نظر فردية ، وتنشأ نتيجةَ لقبولها دون الرجوع إلى مصادر الحياة الدينية[128] .

وهذا الإمام الفخر الرازي يستشهد بكلمات من الإنجيل إلى العربية ، جاء فيها : « لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه »[129] .

والموقف المتعصب والمبالغ فيه نحو السنة يقابل بتعصب مماثل للبدعة حتى في أكثر الأمور ابتذالاً . فالحركة الوهابية الحديثة تتّبع أسلوباً للحياة كما كانت في عهود الإسلام الأولى ، وذلك بمجاهدة ما يوصف بأنه بدعة ، ليس أيّ شيء مضاد لروح السنة فحسب ، بل كلّ شيء لم يثبت له أصل فيها كذلك . ومن المعلوم أن المغالين في المحافظة على القديم يرفضون كلّ جديد ، كشرب القهوة وتعاطي التبغ بالأضافة إلى الطباعة ، وما يأتي على هذه الشاكلة . والفقهاء المسلمون لم يوفّقوا تماماً حتى اليوم لأستعمال السكين والشوكة[130] .

وهذا الموقف يرجع أصله إلى صرامة أسلافهم وصلابتهم ، والحكم الصارم الذي جاء في الحديث ضد البدعة تفرع عن هذه الدوائر .

ويروى أن النبي خطب في إحدى الأعياد فقال : « من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له . إنّ أصدق الحديث[131] كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى

---

(128) الأغاني (ج 9 ، أخبار مروان بن أبي حفص) قال الوليد بن يزيد :

وما اتينا ذاك عن بدعة أَحَلَّهُ الفرقان لي أجمعا

وفي موضع آخر من الأغاني (ج 6 ، اخبار الوليد بن يزيد) :

لَمْ نأت ما نأتيه عن بدعة أَحَلَّهُ الفرقان لي أجمعا

(129) الرازي : مفاتيح الغيب (246/15) ، والنبي محمد نفسه يرى أن رهبنة الرهبان جاءت من وجهة النظر هذه (الحديد /27) : « ورهبانية ابتدعوها » .

* (ليس في مفاتيح الغيب ذكر للنص الانجيلي المذكور . وكل ما هنالك انه جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله ﴾ . يقول الرازي : « المسألة الخامسة : لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم ، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ولذلك قال تعالى بعده : ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ .

والنص الانجيلي الذي ذكره جولد تسيهر جاء في انجيل يوحنا (اصحاح 16 رقم 13) وفيه « وأمّا متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يَسْمَعُ يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ») .

(130) Snouck Hurgronje, Mekkanische sprichtwörter und Redensarten, p. 23.

(131) هذا الحديث مماثل للرواية التي سبق ذكرها في أول الفصل .

محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكلّ محدثةٍ بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النـار »[132] . ثم قدمت الأفكـار نفسها فيـها بعد بشكـلٍ أكثر وضـوحـاً وأسهـابـاً ودقة[133] . كما روى أن النبي صلّى بأصحابه ثم وعظهم موعظة ذرفت منها عيـونهم ووجلت منها قلوبهم فقالوا : « يا رسول الله كأنها موعظة مودّع ، فأوصنـا » فقال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كبيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين . عضوا عليها بالنواجذ[134] ، وإياكم والمحدثات ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

ونسمع كذلك بمبدأ مماثل يـرتبط بأسم عبـدالله بن مسعود أحـد أقدم فقهـاء الإسلام ، وهو قوله : « أتّبعوا[135] اتّبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »[136] ، وهذا أبـو قـلابة (ت حـوالي 104 - 108 هـ) يقول : « مـا ابتـدع رجـل بـدعـةً إلاّ استحـلّ السيف »[137] .

وتفسير الآية رقم (7) من سورة الفاتحة ـ الذي أورده الثعلبي ـ يتفق مع هذا

---

* (يعني الحديث الذي نسبه إلى عبد الله بن مسعود . أنظر الإحالة رقم16 وتعليقنا بعدها) .

(132) النسائي (كتاب صلاة العيدين ، باب كيف الخطبة) .

(133) أبو داود (كتاب السنة ، باب في لزوم السنة) ، الدارمي (باب اتباع السنة) وقارن بما جاء في سنن الترمذي (كتاب أبواب العلم ، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة)، ابن ماجة (المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين) .

(134) لمعرفة المزيد عن هذا التعبير انظر الطبري : التاريخ (1944/1) طبعة دي جويه .

(135) وهذا تركيب مليء بالمعاني ، ومنها أن العمل المقبول هو السنة .

وهذا موجود أيضاً في خطبة لأبي بكر الصديق يقول فيها : « إنما انا متّبع ولست بمبتدع» انـظر تاريـخ الطبري (1845/1) ، والكلمات نفسها ذكر أن عمر بن عبد العزيز قالها : في خطبة له . انظر مروج الذهب للمسعودي (145/2) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 1967 م . وجاء في صحيح البخاري (كتاب العيدين ، باب الخروج إلى المصلى بغير منبر) : « غيرتم والله » ولفـظة (أَسَنَّ) تعني غالبـا تطبيق السنة الصحيحة وهي مساوية لعبارة (اصاب سنةً) ومقابلة لعبارة (اخطأ السنة) انظر تاريـخ اليعقوبي(183/2) دار بيروت للطباعة والنشر 1980 م . .

* (الخبر كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدْريّ أنه خرج مع مروان وهو أمير المدينة في اضحى أو فطر حتى اتيا المصلى فإذا بمنبر بناه كثير بن الصلت وإذا بمروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجذبه سعيد من ثوبه . فجذبه مروان وصعد وخطب قبل الصلاة فقال له أبو سعيد : غيرتم والله) .

(136) الدارمي (باب من كره الفتيا وكره التنطع والتبدع) .

(137) المصدر السابق (باب اتباع السنة) .

النوع من الأفكار ، فالمغضوب عليهم هم أصحاب البدع والضالون الذين ضلوا عن السنة .[138] .

وصاحب البدعة ينظر إليه في الواقع بمقت منذ القرون الأولى للإسلام ، وممارساته الدينية مردودة تماماً ، وحتى أعماله الحسنة ليست بذات نفع ما دام قد اتهم بالبدعة[139] . وهذا التفسير المفرط للبدعة (الذي منع انتصاره تطور المجتمع إلى حدّ ما) أثار ردّة فعل بين الفقهاء فأحسّوا في أنفسهم ضرورة الحدّ من غلواء هذا التعصب للسنة .

وهاتان المحاولتان ـ إحياء السنة وإماتة البدعة ـ كانتا في الحقيقة متماثلتين من حيث أنهما اعطتا تأثيراً لنفس الفكر فيما يتعلق بالمظاهر الموجبة والسالبة لنفس التيار العقلي . ومن ثمَّ ظهرت مشكلة الأفكار الإسلامية المتفقة مع حاجات الحياة العملية[140] .

وإذا نفّذت التعاليم النظرية السابقة فيما يتعلق بمحاربة البدع بشكل منطقي ، فإن حياةً ما في محيطات تختلف عن الظروف الدينية للعقود الثلاثة الأولى للإسلام في المدينة ستكون مستحيلة ، وكلّ شيء لم يكن معروفاً بالممارسة أو بالاستعمال إبّان تلك الفترة يجب أن يوسم بالبدعة . ومن هذا الباب لم تنجح سبل الراحة الممكنة للحياة اليومية في الظهور عند قوم . تعوّدوا على وضع إجتماعي بدائي ، لذلك فإنّ استعمال المناخل[141] ، والأشنان في التنظيف[142] ، واستعمال الموائد وغيرها يصنّف

---

(138) المغضوب عليهم بالبدعة والضالون عن السنة .

(139) ابن ماجة (المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل) .

* (يعني قوله ﷺ : « لا يقبل الله لصاحب بدعة صوماً ولا صلاةً ولا صدقة ولا حجّاً ولا عمرةً ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلا . يخرج من الإسلام كما تخرج الشّعرةُ من العجين » وقوله : « أبَىَ الله أن يقبل عملَ صاحبِ بدعةٍ حتى يَدَعَ بدعَته » ورجال اسناد الأخير مجاهيل كما في مجمع الزوائد للهيثمي) .

(140) الظاهرية Zahiriten ص 59 .

(141) الترمذي (كتاب الزهد ، باب ما جاء في معيشة النبي) ويبن بوضوح أن تلك المناخل لم تكن موجودة على عهد الرسول ، وكيف كان الناس يفعلون لفصل الشعير عن قشرته . وهذا ابن خلدون يلحظ عدم وجود المناخل وذلك في وصفه للشكل البدائي البسيط لأسلوب الحياة العربية . المقدمة ص 170 (فصل في انقلاب الخلافة إلى الملك) .

* (حديث أن المناخل لم تكن موجودة على عهد الرسول اخرجه ايضاً البخاري في صحيحه (كتاب الأطعمة باب ما كان النبي واصحابه يأكلون) وفيه أن أبا حازم سأل سهل بن سعد « هل كانت لكم في =

في قائمة أقدم البدع التي ظهرت بعد زمان محمد[143] . ولما وجب تعديل مفهوم البدعة ليتلائم مع متطلبات العصور ، ظهر التفريق بين البدعة الحسنة أو البدعة المحمودة[144] ، والبدعة السيئة أو البدعة المذمومة . ومن هذا التفريق نحصل على معلومات عن زمن علماء الإسلام الأوائل . حتى أن مالك بن أنس روى قول عمر في صلاة التراويح : « نعمت البدعة »[145] ، ثم يأتي الشافعي ليصوغ التفريق المذكور لتوه بين البدعة المحمودة والبدعة المذمومة بشكل واضح بقوله : « المحدثات من الأمور ضربان . احدهما : ما أحدث يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً[146] أو اجماعاً ، فهذه البدعة الضلالة . والثانية : ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحدٍ من هذا ، وهذه محدثة غير مذمومة »[147] .

ووجود هذا التمييز - بالرغم من أنه لم يكن في شكلٍ نظريّ دقيق - يستلزم

= عهد رسول الله ﷺ مناخل ؟ قال : ما رأى رسول الله ﷺ مُنْخَلاً من حين ابتعثه الله حتى قبضه . قلت : كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول ؟ قال : كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقي ثريناه فأكلناه » . وأخرجه ابن ماجة في سننه (كتاب الأطعمة باب الحوّاري) والذي جاء في مقدمة ابن خلدون : « وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة وإنما كانوا يأكلون الحنطة بنخالها » .)

(142) ويمكن لشخص ما أن يتحصل على لمحات عارضة عن كيفية تصور العلماء للحياة العربية في العصور القديمة . فهذا زهير بن أبي سلمى يذكر في شعره استخدام العرب للأشنان أو (الحُرُض) منذ القديم .

* (يعني قول زهير :

فَآضَ كأنَّه رَجُلٌ سليبٌ ... على علياء ليس لَهُ رداءُ
كأن بريقه بَرَقانُ سَحْلٍ ... جَلا عن متنه حُرُضٌ وماء)

(143) الغزالي : الإحياء (126/1) الطبعة المذيّلة بتخريج الحافظ العراقي المسمى (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار) .

(144) وهنالك ايضاً البدعة المباحة . وثمة مثال على ذلك في المسائل المأثورة للنووي (ورقة 9) مخطوط بمكتبة جامعة لايبزج . قارن بـ : Sell, The Faith of Islam, p. 15.

(145) الموطأ (باب ما جاء في قيام رمضان) .

* (ومن الطريق نفسها اخرجه البخاري (كتاب الصوم ، باب فضل من قام رمضان) . أنظر كلامنا عن قول عمر : نعمت البدعة هذه في تعليقاتنا الملحقة بآخر هذا الفصل) .

(146) الأثر هو الخبر الموقوف على الصحابي أو التابعي .

(147) البيهقي : مناقب الشافعي (469/1) الطبعة الأولى ، دار التراث ، القاهرة ، تحقيق أحمد صقر ، 1970 وعند القسطلاني (342/10) ، قارن كتاب المدخل لمحمد العبدري (الاسكندرية 1293) 295/3 .

نصّاً شرعيّاً ، ووجد ذلك في قول النبي ﷺ ، : « من سنّ سنةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينتقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها »(148) (149) .

وهذه العبارة ـ يعني الحديث ـ (التي كان ظهورها هجوماً عنيفاً ضد المحاربة المفرطة للبدعة) تقتضي ظهور سنن جديدة إلى آخر الزمان .

وأصبح هذا التفريق بين السنة الحسنة والسنة السيئة خاصية مشتركة للصالح الإسلامي ، كما أصبح مألوفاً عند الناس الذين يعيشون في أكثر المستويات بساطة . ليس فحسب ، بل ظهر هذا التفريق في الشعر الشعبي أيضاً(150) . فمؤلف سيرة عنترة ومؤلفو الكتب الشعبية والأساطير(151) يفترضون أن المستمعين والقراء والذين لم يتربّوا تربية دينية يعرفون هذا التفريق ، فهذا مالك بن زهير يقول لشداد آملاً أن يعترف لعنترة : « والرأي عندي أنك تسن هذه السنة في العرب ، وتجعلهم لك تبعاً لأن الفضائل الحميدة تشكر إن لم تكن بدعة ولا منكراً »(152) .

ولم يُلْق المتشددون لهذا التفريق بالاً ، إلاّ أنّ هذا التفريق قد ظهر في الحياة

---

(148) قارن بقول لبيد : « السنة الشنعاء » (16 بيت رقم 5) دار صادر بيروت 295/3 .

* (يعني قول لبيد العمري :

لَـوَ شـكـانَ مـا اعـطيتني القـوم عنـوة   هـي السـنـة الشـنـعـاء والـطعن يـظأر

وهو بيت من قصيدة قالها في تعنيف بعض قبائل بني عامر ويعيّرهم بعدم الحفاظ وبقبول الديّة) .

(149) أبو يوسف : الخراج 82 (فصل في الصدقات) . مسلم (كتاب العلم ، باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة) الدارمي (المقدمة ، باب من سنّ سنة حسنة) النسائي (كتاب الزكاة ، باب التحريض على الصدقة) ، ابن ماجة (المقدمة ، باب من سنّ سنة حسنة) .

* (لاحظ أنه لم يراع في ترتيبه لكتب السنة قيمتها العلمية ، كما أن تقديم كتاب الخراج لأبي يوسف عليها خطأ كبير) .

(150) وهذان المفهومان (السنة والبدعة) يظهران كذلك في التشبيهات الشعرية .

(151) سيرة سيف بن ذي يزن (95/15) : « إنها حقاً بدعة ، لكنها حسنة لا ضرر منها البتة » . قارن بـ : الليالي العربية . طبعة بولاق سنة 1279 هـ ، (273/2) .

* (النص المنقول من سيرة سيف ترجمناه عن الانجليزية حيث لم تكن سيرة سيف بين يديّ وقت الترجمة لنقل النص كما هو فيها) .

(152) سيرة عنتر بن شداد (180/3) : « إن لم تكن بدعة ولا منكراً » .

الشعبية في كلّ مكان[153] (بالرغم من بعض المقاومة له)، كما أعطى هـذا التفريق الدوافع للموافقة على اجراءات أو تنظيمات جديدة بشكل كامل .

والمطلوب فقط قليل من التحرر الفكري لأولئك الرجال لكي يتسامحوا ويجيزوا أشياءً مناقضة للأسلام كلياً تحت شعار البدعة الحسنة .

(153) قارن ذلك بما كتبه في مجلة (الجمعية الألمانية للدراسات الاستشراقية) SDMG ، 28،ص 304 وما بعدها .